

عبد المنعم الصاوى

مجموعة قصص

تفاحة فى طبق مشروخ

إهـــــــداء ٢٠١٠

ساقية عبد المنعم الصاوى

جمهورية مصر العربية

تفاحة فى طبق مشروخ

عبد المنعم الصاوى

تفاحة فى طبق مشروخ

عبد المنعم الصاوى



تفاحة فى طبق مشروخ

كانت التفاحة عندى!

وعلى فرعها، كانت تتأرجح!

وحركتها كانت رشيقة كبجعة بيضاء!

وذات مساء، والشفق وردى كخديها!

اختفت عن عينى!

وأبت أن يكون لها عندى مكان.. إلا فى قلبى!

مسكين يا قلبى!!

التفاحة مخبوءة فى طياتك!

ويمر عام.. وعام.. وعام.

وهى قابعة فيك.

لكن رائحة التفاحة.. نفاذة. وهى تتضوع فى كل كيانى...

ليشمها كل الناس من حولى!

هل تشمون الرائحة؟

جميلة؟.. أليس كذلك؟

إنها التفاحة. فى قلبى!

وسكت العجوز قليلا، ثم أخذ يردد:

مسكين يا قلبى! مسكين يا قلبى!

وتتجمع بعض النسوة والفتيات والأطفال حوله ليرددوا معه:

مسكين يا قلبى! مسكين يا قلبى!

●●●

وتبدأ الأغنية من جديد، على الرصيف المواجه لفندق أفخاذيا، فى مدينة سوخومى، فى ولاية جورجيا، على شاطئ البحر الأسود.

كانت التفاحة عندى!

وعلى فرعها كانت تتأرجح!

وحركتها كانت رشيقة، كبجعة بيضاء!

●●●

ويخفت صوت العجوز، لكن أصوات النساء والفتيات والأطفال تتصل.

وذات مساء، والشفق وردى كخديها.

اختفت التفاحة عن عينى!

وأبت أن يكون لها عندى مكان، إلا فى قلبى!

ويتجمع بعض الشباب والرجال وعجائز سوخومى، لينضموا إلى الكورس: مسكين يا قلبى!

وتمضى الأغنية، وصوت العجوز كصوت حادي القافلة يتقدم الجموع.

ويستمر العجوز، يطلق أغنيته، مرة فى صوت مبحوح ومرة فى صوت جهير، ولكنه فى جميع الأحوال.. مشروخ! كلوح من زجاج، كسرته العاصفة، لكنه ظل مع هذا، متمسكا بمكانه من الإطار.

والرجل مع هذا منكب على عمله، مجلسه لا يتغير، كما لا يتغير فيه شئ.

فى نفس هذا المكان اعتاد الناس أن يروه.

وأجيال كثيرة شبت، لا تكاد تعرف المكان إلا به. هو العلامة الوحيدة المميزة للشارع، وللفندق، ولهذا المكان من

كورنيش البحر الأسود، ولمدينة سوخومى.. أحيانا.. بل ولمقاطعة جورجيا كلها.. ربما!

مقعده صغير ومنخفض، ذو لون أحمر، وأمامه قاعدة مربعة، يعتليها مقعد كبير أزرق ذو مساند من جانبيه، ومن خلفه.

وعن يمين الرجل أدواته البسيطة: شاكوش وزردية، وصندوق صغير من ورق فيه بعض المسامير مختلفة الأحجام والأطوال، ومسلة مجهزة بخيط رفيع أبيض، وقطعة من الشمع ملقاة إلى جوار الصندوق الصغير.

هذه كل أدواته: بسيطة؟ أليس كذلك؟

لكنه مع هذا أقام كشكا من خشب، يضع فيه هذه الأدوات، حينما تحين لحظة انصرافه، ثم يعود يخرجها من الكشك، عندما يصل إلى مكانه.

فى الساعة التاسعة تماما يكون على مقعده.

وفى الساعة السادسة بعد الظهر تماما يغادر مكانه ويرتب أدواته وينصرف.

لم يكن يعرف التساهل فى هذه المواعيد، كأنه ساعة سويسرية مضبوطة لا تقدم ولا تؤخر.

الدنيا برد.. لا يهم! حر.. لا يهم! مطر..لا يهم!

أهم ما يهمه أن يحافظ على مواعيده، لأن الخروج على مواعيد العمل، والتفريط فى ثانية واحدة منها، نوع من الميوعة لا يقبله!

والعجوز - رغم ذلك - عجوز!

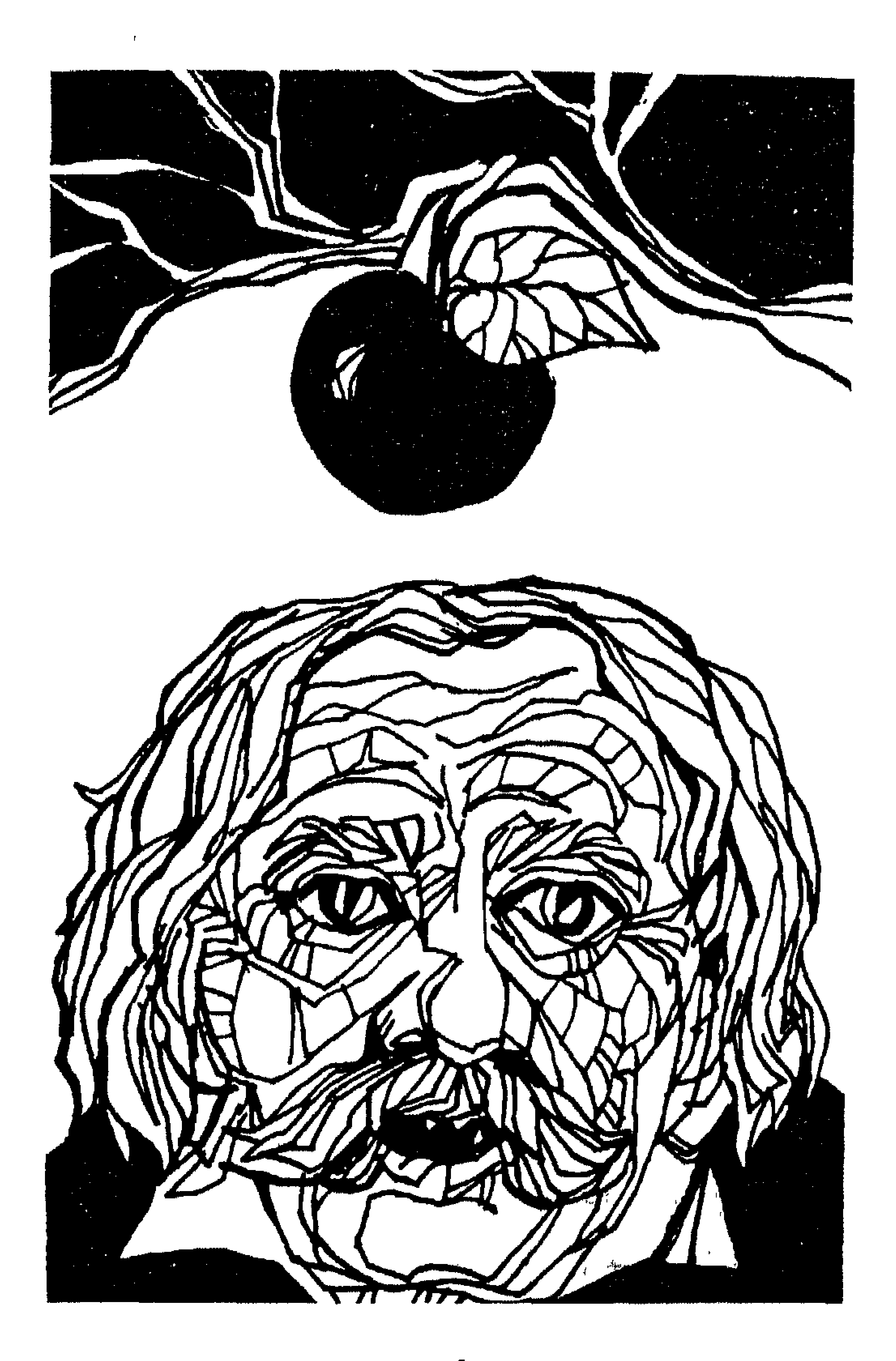
تنظر إليه، فتكاد تقرأ فيه سطورا محفورة، من أيام حكم القياصرة. وتتأمل خطوط وجهه، فتجدها متداخلة فى طيات، تكاد كل طية منها أن تغطى على الطية الأخرى، وتتدلى فوقها، أو تزاحمها مكانها من هذا الوجه العتيق.

وشعره أبيض، ثم صار بياضه رماديا من طول الزمن! لكنه مع هذا يملأ جلد رأسه، ويتدلى من حاجبيه إلى جفنيه، ويغطى شفتيه، وهو يزحف من شاربه إلى فمه الواسع. ثم هو فى ساعديه، وكأنه نوع من الشوك!

والعينان الواسعتان لا تزالان تطلان على الدنيا، لتريا وجوه القادمين والرائحين، وفيهما دائما ابتسامة حزينة!

والظهر مقوس، والصدر ممزق.. والكتفان ضامرتان، والساقان كليلتان، والأذنان ذابلتان!

ومع هذا فالرجل يعمل، ويغنى أغنيته الوحيدة التى لم يعد يعرف سواها، ويطربه كل الطرب أن يشاركه فيها المارة.



إنه من أهل جورجيا، ومن أسرة معمرة، يعيش أفرادها فوق المائة عام على الأقل.

والذين يموتون من أفراد أسرته فى التسعين، يعتبرون من الشباب الذى ذهب غيلة! وقبل المائة والعشرين، يصبح الميت مشكوكا فى نقاء دمه! ورث عن عائلة أمه قصر العمر!

هو مثلا تزوج بعد المائة من زوجته الثالثة أو الرابعة، لا يدرى! ماتت الزوجات، كل وراء الأخرى، وهو يدفن واحدة ويبكيها ويتقبل عنها العزاء، ثم يتسلى عن البلوى بزوجة جديدة.

ـ بعد المائة يا عمى؟

ـ وماذا فى هذا؟ عيب؟

ـ ما عيب إلا العيب يا عمى، لكن كيف؟

ـ كما يتزوج كل الناس!

ـ لكنك سمعت ما يرويه الناس من نوادر.

ـ آه.. عن قريبنا الذى أنجب بعد المائة.

ـ نعم. كان هذا غريبا.

ـ وقالوا كلاما سخيفا عن جاره الصبى.

ـ تماما يا عمى.

ـ ولماذا لا تتمم القصة؟

ـ أعرف أنه سمع كلام الناس عنه.

ـ وخرج إلى الجبل، ليعيش مع زوجته الشابة فى مكان منعزل.

ـ وهناك أنجب منها مرة أخرى.

ـ وثبت للناس أن كلامهم فارغ.

ـ الناس معذورون يا عمى.

ـ الغيرة تأكل قلوب العاجزين.

ـ يا عمى!

ـ أنا أنجبت "لالى" بعد التسعين وأقسم لك أن أحدا لم يعاونى فى إنجابها، إنها ابنتى، ومن صلبى وليس هناك من يستطيع أن يشكك فى بنوتها لى.

وينطلق الرجل فى صوته المبحوح العميق يغنى:

كانت التفاحة عندى!

وعلى فرعها، كانت تتأرجح!

وحركتها كانت رشيقة، كبجعة بيضاء!

وذات مساء، والشفق وردي كخديها. اختفت التفاحة عن عينى!



وأبت أن يكون لها عندى مكان، إلا فى قلبى!

وينضم الفتى إلى الرجل العجوز ليكملا معا الأغنية:

مسكين.. يا قلبى! مسكين.. يا قلبى!

وتوقف الإسكافى العجوز فجأة، وهو يتأمل الصندل الصغير الذى أمامه. ثم نظر إلى السيدة الشابة التى وقفت تنتظر، وأطال إليها النظر، ثم قال:

- طبعا ليس "صندلك"

- وضحكت الشابة ضحكة مرحة وهى تقول:

- ليته كان " صندلى".

- ابنتك؟

- طبعا، شقية وصاخبة، وهوايتها فى قطع "صندلها"!

- تلعب به.. ماذا؟

- كل شئ. تضرب به أى شئ.

وأحس الإسكافى أنه محتاج إلى أن يقف. أسند ذراعيه على جانبى مقعده، لكن الجانبين عجزا عن حمله، أو ربما عجز ساعداه. المهم أنه تخاذل، وعاود الكرة مرة بعد المرة، فلما ظل عاجزا عن الوقوف، مد ساعديه للصبية الشابة أمامه، فأعانته على الوقوف.

وبدا وهو واقف محنيا، أو مكورا فى أول الأمر، ثم أخذ عوده يستقيم قليلا.. قليلا، حتى مد قامته كالعصا الخيزران الملوية من أعلى!

ومد يده فى جيبه، وأخرج مفتاحا صغيرا فتح به الدرج، ثم نظر إليه، يبحث عن الشئ الوحيد الذى يحفظه فيه.

وأخرج "صندلا" صغيرا، بنى اللون، مقطع الجوانب لا يزال.

وأخذ الإسكافى العجوز يضاهى الصندلين، هذا بذاك، ولما فرغ من المضاهاة، ارتفع صوته، يغنى:

كانت التفاحة عندى!

ومضت الصبية الشابة تغنى معه:

وعلى فرعها، كانت تتأرجح!

فلما وصلا إلى ختام الأغنية، كان الرجل يمسك فى يديه، الصندلين الصغيرين، فأخذ يلوح بهما من داخل الكشك الخشبى، وهو يقول فى صوته المبحوح:

مسكين.. ياقلبى! مسكين.. ياقلبى!

وعاد الإسكافى إلى مقعده، وأمسك بالصندل المقطوع بين يديه، بعد أن أعاد الثانى إلى مكانه من الدرج وقال للصبية الشابة:

ـ ينتهى قبل الخامسة، مناسب؟ هل هذا الوقت مناسب؟

ـ نعم ياعمى.. مناسب تماما. أمر عليك فى الخامسة.

ـ وحدك؟

ـ فى الغالب. لكن لماذا؟

ـ إذا لم تأت صاحبته، فلا "صندل" ولا يحزنون.

ـ ألست أهم ياعمى؟

ـ يعنى!

ـ إذن أتسلمه أنا.

ـ هى التى ستتسلمه ياحلوة.

ـ حاضر ياعمى.

ومضت وصوته يلاحقها:

كانت التفاحة.. عندى!

وظلت تردد معه كلمات الأغنية، حتى وصلت كورنيش البحر الأسود، فكادت تصيح معه:

مسكين.. ياقلبى!

●●●

ومضى الإسكافى العجوز يصلح "الصندل" الصغير، وكان بنى اللون، كذلك الذى يحفظه فى درجه الصغير.

وكان يبدو عليه الاهتمام البالغ، وهو يعالج ما فى الصندل من عيوب.

كان يمسكه فى رقة، ويديره بين يديه، كأنه يدير زهرة رقيقة، يداعب أوراقها.

وكان صوته المبحوح يقطع السكون بين الحين والحين بأغنيته التى انتشرت فى المدينة كلها.

وحينما كان يقبل عليه زبون يريد أن ينظف حذاءه، ويعتلى المقعد الكبير أمامه، كان ينظر إليه فى ضيق وتبرم، لأنه قطع خلوته بالصندل الصغير البنى، الذى بين يديه.

لكنه مع هذا كان يقبل على الزبون الجالس، لينظف له حذاءه فى سرعة ولا يتبادل معه كلمة.

والصندل الصغير فى حجره، لا يدعه يفارقه!

وأخيرا أتم مهمته على خير وجه، وأصلح الصندل بكل مايملك من فن، ثم أخذ ينظفه فى عناية، ليلمع كالمرآة!

وعندما اطمأن تماما إلى أنه قد فعل كل مايستطيعه، نادى أحد الباعة، ليشترى منه قطعة شيكولاتة سوداء.

- باللبن أحسن ياعمى.

- قلت سوداء، بلا لبن.

- طيب محشوة بعين الجمل.

- ولا هذا أيضا.

- السوداء ليست للأكل.

- أعرف للطبيخ! أليس كذلك؟

- وفيم تريدها إذن؟

- هذا شأنى أنا.

- أنا أنصحك.

- كتر خيرك. هات واحدة سوداء.

- أمرك. لكن الأصناف الأخرى ليست أغلى كثيرا.

- قلت هذا شأنى، ولا داعى "للنقرزة".

- ياعمى خذ.

- أشكرك.

ودفع الإسكافى العجوز إلى الفتى ببضع قطع فضية، ووضع قطعة الشيكولاتة إلى جواره فى عناية.

وأخذ ينتظر.

إن عقارب الساعة لاتتحرك، والزمن قد تجمد! ماذا جرى للدنيا؟ كم الساعة الآن ياترى؟

لا بأس. لم يبق إلا ثوان معدودات.

ياترى ماشكلها؟ ماطولها؟ مالونها؟

وأخذ يغنى أغنيته الوحيدة والحبيبة، فى صوته المبحوح.

حتى رأى من بعيد الصبية الشابة قادمة، وفى يدها طفلتها.

ووقف الإسكافى العجوز وحده! استند إلى جانبى المقعد، وهب واقفا وحده! واتته القوة من حيث لم يحتسب، فوقف وحده!

وابتلعت ابتسامته وجهه كله، وظهرت عينات من عضم منثورة فى فمه.

لابد أن هذه كانت أسنانا من نصف قرن!!

وفتح الإسكافى ذراعيه للطفلة.

وأنست الطفلة إليه، فألقت بنفسها بين ذراعيه.

وأخذ الرجل يداعبها، فى حب واله، ويناجيها ويناغيها ويسامرها.

- تحبين الشيكولاتة السوداء؟ هذه هى.

- إن.. هذه رائعة. ماما ترفض أن تدعنى أشترى هذا النوع؟

- تعالى لى، وأنا أعطيك كل يوم قطعة. ماما مخطئة. لماذا تمنعك؟

- تقول إن صنفها ردئ.

- لكنك تحبينها يا حلوة.

- جدا جدا ... أحبها وأتمنى الحصول عليها دائما.

- تعالى إلى، وستجدينها دائما.

- يعنى أقطع صندلى كل يوم؟

- لماذا يا تفاحتى؟

- لآتى إليك.

- ومن غير صندل، ألا تأتين؟

- من غير سبب، كيف آتى إليك؟

- إذن اقطعى الصندل لتأتى.

- فكرة جميلة. سأفعل ذلك. لكن ماما.

- ماما.. ماما.. وأنا؟

ـ أنت.. من؟

ـ تصورى أنى.. بابا.

ـ بابا.. بابا صغير، لكنك.

ـ أعرف أنى كبرت، لكن ألا أصلح بابا؟

ـ أسأل ماما.

ونظر الرجل إلى الأم الشابة، وقد اكتسى وجهه بالحزن، ولم يدر ماذا يقول.

وأسرعت الأم الشابة تقول لابنتها:

ـ هذا مثل بابا.

لكن الطفلة الساذجة أخذت تسأل:

ـ لكن بابا صغير يا ماما.

ـ سيكبر يوما يا ابنتى.

ـ سيكبر كهذا الجد؟

ـ من يدرى؟ ربما!

وعندما مدت الشابة يدها بالأجر المناسب عن إصلاح الصندل، دفعها الإسكافى العجوز، وهو يقول:

ـ لا.. من فضلك.

ـ هذا حقك.

ـ وقد أخذته.

ـ كيف؟

ـ يكفينى أنها أتت.. يكفينى أنها قبلت هديتى. وسيكفينى أنها ستقطع الصندل كل يوم!

●●●

ـ هيه! قطعت الصندل؟

ـ لا .. أبدا. الصندل سليم وجميل.. ألا ترى؟

ـ إذن جئت من غير صندل مقطوع.

ـ .. لأراك.

ـ وتأخذين الشيكولاتة السوداء؟

ـ أنا أحبك يا جدى.

ـ وأنا أحبك.. أكثر.

ـ لا يمكن.. مستحيل. أنا أكثر.

ـ بل أنا أكثر..

ومضى الإسكافى العجوز يغنى والصغيرة البريئة تغنى معه.

كانت التفاحة عندى!

وعلى فرعها كانت تتأرجح!

وحركتها كانت رشيقة، كبجعة بيضاء!

وذات مساء، والشفق وردى كخديها!

اختفت التفاحة عن عينى!

وأبت أن يكون لها عندى مكان، إلا فى قلبى!

مسكين.. يا قلبى!

التفاحة مخبوءة فى طياتك.

ويمر عام، وعام، وعام، وهى قابعة فيك، لكن رائحة التفاحة نفاذة.

وهى تتضوع فى كل كيانى.

ليشمها كل الناس من حولى!

هل تشمون الرائحة؟

جميلة؟ أليس كذلك؟

إنها التفاحة.

فى قلبى!

●●●

ويكون جمع كبير من الناس: نساء، وأطفال، وصبية، وشيوخ، قد تجمعوا حول الإسكافى العجوز، وأخذوا يرددون معه الأغنية.

ولما انتهوا إلى مقطعها الأخير، بدا كأن الجمع كله يشارك العجوز مشاعره، فخفتت أصواتهم وهى تردد، فى شئ من الهمس كأنه النجوى.

مسكين.. يا قلبى!

وكان الإسكافى العجوز، قد أزال الورق عن قطعة الشيكولاتة السوداء، وقدمها للصغيرة الباسمة، ذات الشعر الأسود.

وأخذت الفتاة تقضمها، وهى سعيدة، تقطر الفرحة من عينيها.

ومضى الإسكافى يقول:

- أنت.. "لالى"؟

- سوزى.

- لا.. "لالى"!

- بل اسمى سوزى ياجدى.

ـ هذا هناك فى البيت، مع أمك وأبيك. أما هنا فأنت "لالى".

ـ وهل يكون للواحد اسمان؟

ـ ممكن: اسم الدلع مثلا. أليس اسما؟

ـ "لالى" إذن اسم دلع.

ـ لا .. "لالى" اسم حقيقى.

ـ لكنك قلت اسم دلع.

ـ قلت مثلا. لكن "لالى" اسم صحيح، لا دلع ولا غيره.

ـ يعنى أكون فى البيت وفى المدرسة سوزى..

ـ وعند جدك هذا العجوز الوحيد.. "لالى".

ـ هل أنت وحيد ياجدى؟

وانطلق الصوت المبحوح العجوز المشروخ:

ـ كانت التفاحة عندى!

ومضى حزينا مكسورًا، تكاد كلمات الأغنية أن تنكفىء على وجهها من فرط ما كان يكابده الرجل من مشاعر.

وشعرت الصغيرة بمحنة الرجل العجوز، فانطلقت تغنى معه.

الصغيرة الطفلة شعرت بالمأساة، فدمعت عينيها، وهى تردد معه المقطع الأخير..

مسكين.. ياقلبى! مسكين.. ياقلبى!.. مسكين.. مسكين!

●●●

وأمسك الإسكافى العجوز بها، وأخذ يمسح على شعرها فى حنو بالغ، وهو يتأمل الدمعات التى تتحدر على خديها.

وأخذ يردد فى كلمات.. كالصلوات:

لكن لماذا؟ لماذا الدموع؟ أحزينة أنت؟ لماذا نحزن؟ لماذا نبكى؟ ومن أين تكون مدامعنا؟ من أين النبع الصافى يرسل دمعه؟ من أين؟

ونظر إليها طويلا، ثم قال لها فى همس:

ـ من أنت؟ ما اسمك ياحلوة؟

وفى همس أجابته الصغيرة:

ـ "لالى".. أنا "لالى"!

وأخذها فى حضنه، ولا تزال بقية قطعة الشيكولاتة على شفتيها، ثم اعتصر بعض ما فيه من دمع، فتدلت من عينيه قطرات، لكن كانت تصحبها أصوات كأنها زئير انخلاع بعض أغصان الشجر، عن جذوعها، فى موسم خريف عاصف!

●●●

يا ربى!!

إن سوزى لم تعد تعرف اسمها! إنها لاترد إذا نوديت باسمها! إنها شاردة أبدا عن نفسها، وعن صاحباتها، وعن لعبها، وعنى!

إنها تنتظر دائما الساعة الخامسة من كل مساء، لتذهب إلى الرصيف الواقع أمام فندق أفخاذيا فى المدينة، قرب كورنيش البحر الأسود، لتلقى الإسكافى العجوز، تقضى معه ساعة، قبل أن ينتهى من عمله، ثم تعود معه، أو تعود وحدها. لكن بعد أن تسير معه الهوينى إلى بيته الصغير فى أطراف المدينة، فى حضن الجبل.

وأحيانا تختلف معه إلى مقهى من المقاهى المنثورة فى الحدائق الممتدة على طول الكورنيش، هو يشرب القهوة، وهى تشرب الكاكاو. وكثيرا ما يلذ لها أن تراه يدير فنجان القهوة بعد أن يشرب ما فيه. ليرى طالعه فى "تنوة" البن المترسبة فى قعر الفنجان!

يا ربى!

ماذا دها سوزى؟

لكنها لم تعد سوزى! إنها "لالى"! إنها تسمع "سوزى" فيخيل إليها أن المقصود بالنداء فتاة أخرى غيرها، فإذا ناديتها "لالى" أطلت نحوى متلفتة!



سوزى يا ربى، لم تعد سوزى!

هل قطعة الشيكولاتة السوداء، التى يعدها لها الإسكافى العجوز كل مساء؟

هل هو الصندل البنى الصغير، الذى تقطعه أحيانا متعمدة، لتذهب إليه ليصلحه لها؟

هل..؟ يا ربى لا!

الرجل قد تجاوز المائة عام بكثير.. بكثير جدا.

الرجل قد صار قطعة فى متحف الإنسان.

لا يمكن أن أتصور أنه.. لا لا.. هذا شئ يتنافى مع طبائع الأشياء؟

لكن سوزى.. أو الأصح "لالى" متعلقة به إلى أقصى حد.

وهو كذلك متعلق بها إلى حد الجنون.

ماذا يسمى هذا التعلق يا ربى؟!

هذا فنجان القهوة أمامى، أشربه أنا الأخرى، ثم أدير "تنوة" البن المترسبة فيه لأرى طالعى! ولأرى ماذا يخبئه الطالع للصغيرة.. سو.. "لالى" أعنى!

هذا طريق مفتوح، خير، لابد أنه يؤدى إلى الخير.

لكن ما هذا؟ رزق كثير يحل علينا من السماء، يهبط فجأة بغير انتظار. من أين؟ لا أدرى! ربما استطعنا أن نبيع ما لدينا من مخزون من فائض نصيبنا من الشاى، بسعر مجز! الأمريكان أناس سذج، وهم مغرمون بالأشياء النادرة، وشاى جورجيا شئ نادر بالنسبة لهم. من يدرى! ربما جاءتنا فجأة سائحة أمريكية، يعجبها الورق المفضفض الذى نعبئ فيه الشاى، فتشتريه بسعر خرافى! يمكن!

على كل حال. هذه كتلة من "التتوة" واقفة فى الطريق!

لابد أن عدوا سيحاول أن يخطف منا هذا الرزق! لكن لماذا يا هذا العدو؟ ابحث لنفسك عن سائحة أخرى أكثر ثراء.. الدنيا مليئة "بالهبل" يا هذا.

وهذه سكة سفر. لمن يا ترى؟ هل يسافر رجلى إلى رحلة غير متوقعة؟ على كل حال تصحبه السلامة فى الذهاب والعودة ما دامت رحلة خير، فلا بأس!

وهذه هى: سوزى.. لا لا! "لالى" أقصد!

لماذا هى سعيدة هكذا؟ ولماذا تضحك فى بشاشة، كأن الدنيا لا تسعها؟ ماذا جرى لك يا صغيرتى الحلوة؟



اضحكى واسعدى، لكن إياك أن تذهبى، ما دمت تحت عينى فلا ضير من السعادة يا صغيرة. أما أن تسعدى بعيدا عنى، فهذا محال.. محال.. محال.

وأخذت المرأة الشابة تغنى وحدها:

كانت التفاحة عندى!

وعلى فرعها، كانت تتأرجح!

وحركتها كانت رشيقة، كبجعة بيضاء!

وذات مساء، والشفق وردى كخديها، اختفت التفاحة عن عينى!

وأبت أن يكون لها عندى مكان، إلا فى قلبى!

●●●

ودخل زوجها معفر الوجه، ملطخ الثياب، من عمله طوال اليوم، فى مزارع الشاى والطباق.

فلما سمع زوجته تطلق أغنيتها، انضم إليها يقول:

مسكين.. يا قلبى! مسكين.. يا قلبى!

وكان بين الرجل وزوجته حوار:

- "لالى"!

ـ من "لالى"!

ـ أقصد سوزى!

ـ ماذا جرى لها؟

ـ لم تعد بعد.

ـ من أين؟

ـ من عند الإسكافى العجوز.

ـ لكن المدرسة بدأت.

ـ لا تخف على المدرسة، هى منتظمة فيها تماما.

ـ وشاطرة؟

ـ جدا. أشطر من فى فصلها.

ـ ومنتبهة لدروسها؟

ـ كأحسن ما يكون الانتباه.

ـ إذن.. ماذا؟

ـ لكنها تعود، ولا هم لها إلا الإسكافى.

ـ تذهب إليه بعد عودتها من المدرسة؟

ـ نعم.. وتختلق الأسباب أحيانا لتذهب إليه.

ـ أية أسباب؟

ـ أحيانا لا تجد وسيلة ألا أن تقطع صندلها .

ـ هاها ..ى! طريفة هذه الحيلة!

ـ وتضحك؟

ـ طبعا . ذكية كأبيها .

ـ لكن ارتباطها بالإسكافى يحيرنى.

ـ رجل فوق المائة والثلاثين.. ما الخوف؟

ـ لكنه .. رجل!

ـ يا شيخة! هل تصدقين؟

ـ ألم تسمع حكايات المسنين؟

ـ خرافات! كلها خرافات؟

ـ والذى أنجب بعد المائة؟

ـ لكن بعد المائة والثلاثين.. مستحيل!

ـ يا رجل.. إنها ابنتك!

ـ يا شيخة إن بعض الناس يقولون إنه تجاوز المائة والأربعين، وآخرون يقولون إنه كاد يصل المائة والخمسين.

ـ ولا يزال يعمل!

ـ وسيظل يعمل حتى يموت.

- ومن يعمل يرتبط بالحياة.

- كيف هذا؟ أنت تتفلسفين.

- العمل نفسه ارتباط بالحياة.

- وماذا يعنى هذا؟

- يعنى إن الحياة ليست كلها عملا.

- "امال"؟!

- فيها عمل، وفيها أيضا..

- .. حب!

- عليك نور.

- ثم.. ماذا؟

- بل ربما كان الحب هو سبب العمل.

- ويجب أن يكون هو سبب العمل.

- إذن فاحتمال أن يحب الإسكافى الصغيرة "لالى"..

- تقولين "لالى"!

- لأنها لم تعد سوزى.. صارت "لالى". هو أطلق عليها "لالى"، وهى تحب اسم "لالى" وتعشقه، وتكاد تنسى أنها سوزى.

ـ وتظنين أنها تحبه؟

ـ وتعشقه.

ـ مستحيل. هذا مستحيل.

ـ بل إنها تعشقه بالفعل.

ـ ما هذا الكلام الفارغ. إنها تعشق أباها مثلا. هل هذا يعنى شيئا؟

ـ أبوها.. أبوها.

ـ والإسكافى العجوز، إسكافى عجوز.

ـ لكنه ليس أباها.

ـ أبو أبيها.. جد أبيها.

ـ فرق السن شئ، والحب شئ آخر.

ـ يعنى هل كنت تحبين جدك مثلا؟ لقد كان عجوزا مثله؟

ـ نعم كنت أحبه، وكان جدى.

ـ وهذا أيضا جدها..

ـ لكنه مختلف عنها.

ـ الخلاف والوفاق والاتفاق، كل هذه أشياء تتولد من العادة، ولو أنك أختى ومن دمى، وافترقنا ثم التقينا لأحببتك ولاشتهيتك.

ـ لكن الفنجان قال لى إنها سعيدة.

ـ الفنجان قال لك هذا.

ـ نعم ومنشرحة جدا كذلك، حتى تكاد تطير من الفرحة.

ـ وأنت تريدينها تعيسة.. مثلا؟

ـ افهمنى، الفتاة لا تفرح هكذا، إلا إذا أحبت.

ـ تحبه ياستى، كما كنت تحبين جدك.

ـ لكنه ليس جدها.

ـ أنت تخرفين. أقسم أنك تخرفين.

ـ والفنجان أيضا.. يخرف؟!

ـ طيب اعملى لى قهوة، لنضاهى فنجانك بفنجانى.

حتى أغتسل من تراب العمل تكون القهوة جاهزة.

●●●

وبينما كان الرجل فى الحمام يغتسل، كانت زوجته فى المطبخ تعد له فنجانا من القهوة. وكان المطبخ والحمام منفصلين، لكن الجدار الذى يفصلهما، كان موصلا للصوت بينهما، أكثر منه عازلا يمنع الأصوات فيهما من أن تتداخل.

ووصل إلى الزوجة فى مطبخها، الأغنية التى ترددها مدينة سوخومى كلها، مع الإسكافى العجوز:

كانت التفاحة عندى!

... وعلى فرعها، كانت تتأرجح!

وحركتها كانت رشيقة كبجعة بيضاء!

وذات مساء، والشفق وردى كخديها!

اختفت التفاحة عن عينى!

وأبت أن يكون لها عندى مكان، إلا فى قلبى!

وارتفع صوت الزوجة منضما إلى صوت الزوج، فى كورس بعيد وقريب:

مسكين.. ياقلبى!

مسكين.. ياقلبى!

وخرج الزوج نظيفا يشمر عن ساعديه، وخرجت الزوجة وكنكة القهوة والفنجان بين يديها.

وجلس الرجل، وأمامه جلست زوجته، وأخذ يحتسى القهوة فى لذة، ويشفطها بصوت مسموع، ككل الفلاحين فى الدنيا.

وبعد أن امتص القهوة شفطة وراء شفطة، أعطى مابقى فى الفنجان من "التنوة"، لتقلبها زوجته كما تشاء، وترى فيها طالعه.

وأهل جورجيا لايقلبون الفنجان على وجهه، لترسم "التنوة" فيه خطوطها، بإشارات الطالع، ولكنهم يقلبون "التنوة" فيه، وهو على وضعه مستقيما فى أيديهم، فما إن يتم لهم جفاف "التنوة" وما إن تتضح لهم خطوطها، حتى يأخذوا فى استطلاع الغيب، من الخطوط والدوائر والكتل المرسومة، سواء فى قاع الفنجان أو فى جوانبه.

ومضت الزوجة تقلب "التنوة" فى الفنجان، ثم تطل على جوانبه تارة، وفى قاعه تارة أخرى، وهى مقطبة الجبين، هلعة حينا، منبسطة الوجه مشرقة التعبير حينا آخر.

وأخيرا اعتدل الرجل ليسمع لها.

واعتدلت أمامه الزوجة لتروى له الطالع. وقبل أن تمضى فى الرواية والحديث. كان لابد من مقدمات.

فنجانك مثل فنجانى، فيه سكة سفر.

ومثل فنجانى، سيأتى خير كبير غير منتظر.

وكذلك فى الفنجان سكة مفتوحة.

كل هذه إشارات نتفق عليها كلانا. طالعك فى هذا مثل طالعى تماما.

وقبل أن تبدأ الزوجة الشابة فى بيان أوجه الخلاف بين الطالعين، انفتح الباب.

وأطل الرجل، وأطلت امرأته.

وظهر وجه سوزى أمامهما.

ومعا قالا لها: سوزى.

أجابت: بل "لالى".

وقبل أن تسيطر عليهما الدهشة والعجب، أشارت بيديها، تدعو زائرا عزيزا جدا عليها.

وقالت تقدمه لوالديها:

تعرفانه طبعا. جدى.. الإسكافى العجوز.

ولم يجد الوالد الفلاح، ولا الوالدة الصبية فرصة حتى ليعجبا! لم يدع لهما الإسكافى العجوز، ولم تدع لهما "لالى" أو سوزى! ثانية واحدة، يرفعان فيها حواجبهما ليعجبا!

أبدا.. ولم يكونا على استعداد لأن يضيعا على أنفسهما لحظة سعادة ومرح.. ولماذا تضيع اللحظة؟ وما العمر إلا مجموعة لحظات متصلة، يتكون منها فى النهاية عمر، قد يتبدد، وقد يتعدد! نعم يتعدد، حين يشعر السعداء أنهم يعيشون أعمارهم، ويستعيرون ـ مع ذلك ـ أعمارا أخرى شاء أصحابها أن تتبدد فى الأسى والدموع!



"عجيبة حياة البشر!! لاشك أنها مخلوقة بالجملة، وأن الإنسان هو الذى يغترف منها بإرادته! التعساء أعمارهم سنين وأيام تقصفها الأحقاد والضغائن، وحسابات كئيبة يطلقون عليها أخلاقيات تارة، وتارة أخرى ضوابط، وتارة ثالثة فضائل!

بينما آخرون يضحكون ويمرحون كالطيور!! ليضيفوا إلى أعمارهم أعمار الآخرين!!"

ويضحك الإسكافى العجوز، وتضحك معه "لالى" ويبدآن أغنيتهما:

كانت التفاحة عندى!

.. وعلى فرعها كانت تتأرجح!

وحركتها كانت رشيقة، كبجعة بيضاء!.. وذات مساء. والشفق وردى كخديها.

اختفت التفاحة عن عينى!

وأبت أن يكون لها عندى مكان، إلا فى قلبى!

وتعالى صوت الأم الصبية، وزوجها الفلاح يشتركان مع "لالى" والإسكافى.. وأخذ الجميع يرددون:

مسكين.. يا قلبى!

مسكين.. مسكين.. مسكين يا قلبى!!

وفجأة نظر الإسكافى إلى فنجان القهوة الفارغ، وقد رسمت "التنوة" على جوانبه خطوطا منتظمة ومتعرجة وصاح وهو يضحك:

أنا أيضا أود أن أشرب قهوتى، لتقرئى فيه نصيبى.

وضحكت الأم الصبية مجاملة ثم قطبت جبينها وهى تعجب للعجوز الذى لا يزال ينتظر نصيبه، ثم عادت تنظر فى ذكاء إلى زوجها، وانصرفت لتعد القهوة، وعلى أطراف لسانها بقية الأغنية، مع هذا!

وأدرك الزوج الفلاح أن زوجته تريد أن تكشف العجوز، بقراءة فنجانه.

وأخذ يحدث نفسه ككل الرجال:

لكن هل صحيح تكشف القهوة ضمير شاربها؟ النساء يعتقدن فى هذا، ويقسمن على صحته أحيانا! لكن هل هذا فى الواقع صحيح؟!

وهز الرجل رأسه فلم يكن يريد أن يتعب نفسه بهذا الكلام، واكتفى بأن أخذ يداعب الإسكافى العجوز، وهو يجامله ويرحب به.

ـ هذه أول مرة تزورنا فيها. أهلا بك.

ـ لكنها لن تكون الآخيرة.. اطمئن!

ـ يا سيدى مرحبا بك سنكون سعداء باستقبالك.

ودخلت والدة "لالى" بفنجان القهوة والكنكة، وكوب الماء، وأخذت تصب القهوة وهى لاتزال تنظر إلى زوجها تنبهه الى ما سمعته من الإسكافى العجوز وتعليقه الغبى عليه! وأخذت تدير لنفسها أكثر من سؤال:

ما معنى هذا! ما معنى أن زيارته لن تكون الأخيرة؟

هل يكون قد اتفق مع الصغيرة الساذجة؟

هل يكون قد تزوجها بالفعل، برغم صغر سنها؟

للرجال أحيانا حيل خبيثة. قد يتزوجها بالفعل، وينتظر بلوغها السن الضرورية، ليضمن أن تكون له!

وأخذت الزوجة الصبية تنظر إلى الإسكافى العجوز، وهو يشرب القهوة هادئا وسعيدا، ويعقب تعقيباته المرحة بين الحين والحين.

ثم تنظر إلى "لالى" أو سوزى ـ لا تدرى ـ تحاول أن تتبين من نظراتها نحوه ماذا عساه أن يكون قد حدث بينهما.

ثم توجه نظرات حادة إلى زوجها حين تراه غير مهتم بما يدور، وكأن الموضوع لا يعنيه!

ولما فرغ العجوز من شرب فنجان القهوة مد به يده المرتعشة إلى الزوجة الصبية، وهو يقول:

- اقرأ لى طالعى يا حلوة.

وأخذت الزوجة تدير الفنجان بين يديها وتراقب العجوز مع ذلك، وفى ذهنها كانت تعجب:

أبهذه اليد المرتعشة يستطيع أن يضمها إليه!

أبهاتين الشفتين الذابلتين، يستطيع أن يقبلها!

مسكينة يا بنتى! مسكينة أنت، وأنا مسكينة معك!!

لكنها لم تمض فى هذا التفكير طويلا فقد كان العجوز ينتظر، وكانت "لالى" تنتظر، ومعها كان الزوج الفلاح.. أيضا ينتظر!

وأخذت الزوجة الصبية تقلب الفنجان يمينا وشمالا، وتطيل النظر فى خطوطه وانحناءاته، وبقع "التنوة" تتجمع هنا وهناك، عالية أو مبسوطة، وهى مرة تقطب جبينها، فتحيطها العيون مقطبة معها، ومرة أخرى تنبسط أساريرها، فترتفع الآهات من الصدور، تتابع تعبيراتها.

ـ ما هذا؟ حظلك غريب يا جدى العجوز!!

ـ لابد أن يكون عجيبا يا بنتى!!

ـ اسمع.. أمامك..

ـ سكة سفر.. أعرف!

ـ ومن أين تعرف؟

ـ كل الفناجين فيها سكة سفر.

ـ وأنت إلى أين تزمع السفر؟

ـ إلى تبليس..

ـ تبليس.. مرة واحدة؟!

ـ ولم لا؟

ـ ولم تذهب؟

ـ أسأل عن أخبار أنتظرها منذ زمن طويل.. طويل جدًا.

ـ لكن المسافة بعيدة يا جدى والرحلة ستكون شاقة عليك.

ـ وما أبحث عنه عزيز.. عزيز جدا يا حلوة، وأية مشقة من أجله.. تهون! على كل حال.. هل أنا الذى سيخبرك عن الطالع، أم تقرئينه أنت لى؟! قولى.. قولى يا صبية.

ـ العجيبة أن رزقا كبيرا ينتظرك.

ـ ربما من يدرى!

ـ ألا تتوقع منه شيئا؟!

ـ أنا فى مسائل الرزق، "مودة" قديمة.

ـ هل فى الرزق "مودة" قديمة، و"مودة" جديدة يا جدى؟

ـ الناس هذه الأيام يحسبون الرزق بالأرقام، ويرفضون ما نقوله نحن من أنه من عند الله.

ـ أى ناس؟

ـ ناس هذه الأيام يا فتاتى الجميلة.

ـ وهل نحن منهم؟

ـ أنتم بالقطع لستم من جيلى، ولابد أن تكونوا من أتباع "المودة" الجديدة.

ـ بل نحن مثلك يا عمى، نؤمن مثلما تؤمن بأن الرزق فى علم الغيب، أو فى القليل جزء منه فى علم الغيب.

ـ أى جزء يا صغيرتى؟!

ـ الجزء الذى يفرق بين الناس.

ـ يعنى هناك جزء يتساوى فيه الناس وجزء آخر لا يعرفونه.

ـ تمام يا جدى العجوز.

ـ وأيهما أكبر؟

ـ هذا يتوقف على عوامل كثيرة مختلفة.

ـ أنت لا شك تحـاولين أن تهـربى من قـراءة طالعى اقرئى.. اقرئى يا حلوة.

ـ إن أمامك فرحا .. هل تعرف؟

ـ فرح؟ أى نوع من الفرح؟

ـ فرح!! ستفرح جدا، شئ عزيز!!

ـ أنا دائما فرح وسعيد وراض.

ـ لا .. إن عتبتك ستشهد فرحا.

ـ عتبتى؟ وهل لى عتبة؟

ـ لكل بيت عتبة!

ـ إلا بيتى، فهو بلا عتبة!

ـ لا تريد أن تفهمنى. فرح فى بيتك.

ـ يعنى إيه؟

ـ ألا تعرف يا أيها العجوز؟

وبدأت الزوجة الصبية تفقد أعصابها وتفقد القدرة على التحكم فيها، كما بدأت تتحدث إليه فى لهجة لا ود فيها ولا مجاملة.



وأخذ الرجل يدهش لما يسمع، وللهجة الجافة التى بدأت الصبية الحلوة تعامله بها. لكنه ـ مع هذا ـ لم يفقد هدوءه، ولا أفلتت منه أعصابه. إنه رجل بلا أعصاب! إنه لم يعد يعرف معنى الحدة، ولا معنى الثورة!

وانطلقت الزوجة تسأل:

ـ من هذه التى فى فنجانك؟

ـ هل فى فنجانى أحد؟

ـ نعم؟ ألا تعرف؟

ـ ليس فى الفنجان أحد يا حلوة.

ـ تكلم كلاما جادا أيها الرجل العجوز.

ـ كان فى الفنجان قهوة وشربتها.

ـ لا داعى للمزاح أيها العجوز.

ـ ماذا تريدين؟

ـ أريد أن أعرف من هذه الصغيرة التى فى فنجانك.

ـ فى فنجانى.. أنا؟ هل هى حلوة؟

ـ جدا.. صغيرة وحلوة.

ـ يا سلام!! طيب صفيها لى.

- وألا تعرف أوصافها؟

- ياليتنى أعرف هذه الأوصاف.

- ألا تعرف أنها حلوة جدا؟

- يا ستى!! ثم ماذا؟

- وصغيرة جدا!!

- حلوة جدا، وصغيرة جدا.. هذا شئ يطيل العمر.

- أكثر مما هو؟

- ولم لا؟

- تريد أن تعيش ألف سنة؟

- لو حدث.. هل أرفض؟

- والله إنك لطماع يا أيها الرجل العجوز.

- وهل هذا شئ أملكه؟

- أنت تسعى إليه.

- من قال؟

- فنجانك!

- أسعى لطول العمر؟

- نعم تسعى إليه.

- كيف؟ قولى لى كيف؟

- تتزوج بنتا صغيرة.. أصغر من أحفادك.

- ليمتد بى العمر؟

- أنت تظن هذا.

- اسمعى يا شاطرة. اسمعى كلام الرجل العجوز.

- اتفضل. وكن صريحا جدا معى من فضلك.

- شئ واحد، نعجز كلنا فى تفسيره.

- ما هو؟ قل!

- الموت... أعنى العمر.

- كلنا.. من كلنا؟

- حتى ناس هذه الأيام يعجزون أمامه، هم يفسرون كل شئ.. بالحساب.. بالواقع. بالقياس على التاريخ. الرزق عندهم محسوب. الإنتاج محسوب. الفائض محسوب. الحياة كلها محسوبة بالمنطق والأرقام والعلم. مضبوط؟ هل هذا مضبوط؟

- ثم.. ماذا؟

- نقول نحن الرزق من عند الله، يقولون إن الرزق ثمرة تخطيط علمى محسوب، وهو يوزع على الناس، وفقا

لجهودهم. نقول المستقبل فى علم الغيب يقولون هم المستقبل امتداد الحاضر. وإذا كان الحاضر معروفا، فإن القياس قادر على حساب المستقبل. وأشياء كثيرة جدا يا ابنتى.

ـ طيب.. أكمل كلامك.

ـ أما الحياة والموت، فسرها لم يكشفه التحليل المادى أبدا. واحد فى كامل قواه، يموت فجأة. وواحد مثلى هالك، يعيش مائة وخمسين عاما، وهنا فى جورجيا، تطول أعمار الناس، وهناك فى موسكو، تقصر الأعمار، ما تفسير ذلك؟ وكيف يحدث ذلك؟.. لا أحد يدرى.

ـ لا أفهم ماذا تعنى.

ـ افهمى يا حلوة. أنا كلامى واضح.

ـ أنا على الأقل لا أفهمه.

ـ أنت تقولين أن الزواج من بنت حلوة جدا، وصغيرة جدا، يطيل العمر.

ـ أنت تظن هذا.

ـ أنا رجل عجوز ومجرب، ولا يمكن أن أخدع نفسى.

ـ يعنى.. أنت لا تفكر فى عروس صغيرة وحلوة؟

ـ من قال إنى لا أفكر فى هذا الحلم الجميل؟

ـ إذن أنت تفكر فيها!!

ـ أفكر.. هذه كلمة بسيطة وتافهة.

ـ إذن ماذا تفعل؟

ـ أنا أعيش معها، لحظة بلحظة. عمرى كله لها يابنتى.

ـ ياليلة سودة!! ماذا تقول أيها الرجل؟

ـ أقول إن عمرى كله لها. أنا لا أعيش إلا لها.

ـ إذن فلابد أنك ستتزوجها.

ـ أتزوج من؟

ـ العروس الصغيرة الحلوة.

ـ ماذا تقولين؟

ـ أقول إنك ستتزوجها.

ـ أتزوج.. ابنتى!! لابد أنك مجنونة يا حلوة!

ـ الرجال هكذا، كلما كبروا.

ـ .. كلما جنوا!! أهذا قصدك؟

ـ .. يعنى!!

ـ وأنا بالفعل من هذا النوع يابنتى.

ـ إذن فإن تخوفى صحيح.

ـ تخوفك مم؟

ـ أنت تعرف.

ـ أعرف شيئا واحدا يا حلوة.

ـ ما هو؟ قل لى.

ـ أعرف أنى أعيش فى حب عميق منذ سنين طويلة.

ـ منذ سنين طويلة؟

ـ سنين أطول من عمرك.. ربما!

ـ أكبر من عمرى! يا ربى! ماذا أسمع؟

ـ الحقيقة يا صغيرتى الصبية.

ـ وما أملك؟

ـ هو يقين يابنتى.

ـ يقين؟! تعنى على يقين من حبها؟

ـ وهى على يقين من حبى؟

ـ وأين هى؟!

ـ ليتنى أعرف أين هى!!

ـ وألا تعرف هى أين أنت؟

ـ كانت صغيرة عندما افترقنا. كانت ذاكرتها نيئة، ولست أدرى إن كانت هذه الذاكرة الطفلة قد استطاعت أن تحتفظ بى، أم أنها امتلأت بسواى، فلم يعد لى مكان عندها.

ـ هل كانت تحبك؟

ـ لم تعرف غيرى.

ـ فلماذا تركتك؟

ـ تلك حكاية طويلة يا صبية.

وسكت الرجل قليلا، ثم شرد عن دنياه، لكن ذلك لم يطل، فأخذ يردد أغنيته الوحيدة، التى ملأت أسماع الناس فى سوخومى:

كانت التفاحة عندى!

وعلى فرعها كانت تتأرجح!

وحركتها كانت رشيقة، كبجعة بيضاء!

وانضمت الأسرة كلها للرجل وهو يغنى:

.. وذات مساء. والشفق وردى كخديها.

اختفت التفاحة عن عينى!

وأبت أن يكون لها عندى مكان، إلا فى قلبى!

وتحشرج صوت العجوز، وتحشرجت أصوات الأسرة كلها: الأب، والأم و"لالى"، وهم يرددون معه:

مسكين.. يا قلبى!

مسكين. مسكين.. مسكين يا قلبى!!

ومضى الجميع يستأنفون الأغنية:

التفاحة مخبوءة فى طياتك!

ويمر عام وعام وعام.. وهى قابعة فيك.

لكن رائحة التفاحة.. نفاذة.

وهى تتضوع فى كل كيانى.

ليشمها كل الناس من حولى!

وارتفع صوت الرجل كأنه النذير والأسرة معه تغنى:

هل تشمون الرائحة؟

جميلة؟ أليس كذلك؟

إنها التفاحة؟

فى قلبى!!

وعاد صوت الرجل حزينا، يتعثر فى خطوه، وانحنى على كفيه، ليخفى فيهما وجهه، وهو يقول كوتر مقطوع:

مسكين.. يا قلبى!

مسكين. مسكين.. مسكين يا قلبى!!

وكانت الأسرة كلها تغنى معه.

لكن الأغنية انتهت، ولم ينته الرجل من ترديد كلماته:

مسكين.. مسكين!

مسكين يا قلبى!

كان الرجل لا يزال يخفى وجهه فى كفيه، وكانت الأسرة تلتف حوله فى دهشة.

لكنه لم يرفع عينيه عن كفيه!

كان يبكى!

●●●

- أنا أحب "لالى" أيتها الصبية الحسناء!

- ليس فى حياتى إلا "لالى" يا ابنتى!

- لماذا تطعنين عجزى وعمرى بهذه القسوة؟

- الفنجان قال لك ماذا؟ كشف حبى؟

- إذن صدقى الفنجان يا ابنتى لأنه صادق!



ـ سيفرح هذا القلب؟. يا إلهى! ليته يفرح، ليعوض بالفرحة عذاب السنين!

ـ تستكثرين على رجل مثلى أن يفرح؟!

ـ لماذا ياابنتى؟. لماذا تكونين قاسية إلى هذا الحد يا صبية؟

ـ أنت حلوة.. وأنت صبية.. لكنى عجوز ومعذب!..

ـ أريد التفاحة، لأضعها فى قلبى!.. فى طبق مشروخ.. ربما! لكنه الطبق الوحيد الذى بقى لى!.. الطبق الوحيد الذى أملكه، ولم أعد أملك سواه أيتها الصبية!

وترنحت ألفاظ الإسكافى العجوز، من النشوة! سكرت من عبق الماضى المعتق! فقدت السيطرة على توازنها! وشعر الرجل، والوجوه كلها تطل عليه، والعيون كلها تغرس أهدابها فيه، إنه يتعثر فى حياته.

وفجأة عاودته روح الغناء فانطلق على عادته، وفى صوته المتحشرج المكدود المثقل، أخذ ينتزع اللحن من حلق شققه الجفاف!

كانت التفاحة عندى!

وعلى فرعها كانت تتأرجح؟

واختلط الصوت المتعب، بصوت لالى الصافى البرىء، وهى تكمل معه الأغنية، صوت ما بعد المائة، وما دون العشرين، التقيا يسترسلان:

وحركتها كانت رشيقة، كبجعة بيضاء!

وذات مساء. والشفق وردى كخديها. اختفت التفاحة عن عينى! وأبت أن يكون لها عندى مكان، إلا فى قلبى!

●●●

واهتزت أعطاف الزوجة الصبية، واللحن يخترق عظامها، فنسيت موقف الأم فيها، وانضمت إليهما، تتوسط العجز والبراءة، وتكون بينهما منطقة وسطا، تجمع بين النقيضين. ومضى الثلاثة يكملون:

مسكين.. يا قلبى!

التفاحة مخبوءة فى طياتك.

ويمر عام وعام وعام.. وهى قابعة فيك.

لكن رائحة التفاحة.. نفاذة.

وهى تتضوع فى كل كيانى.

ليشمها كل الناس من حولى!

●●●

ووجد الزوج أن روح الجماعة قد سيطرت عليه هو الآخر، فاندفع مع الثلاثة، يضيف إلى زوجته صوت الحقل، عندما تتفتح فيه الزهور، تومئ بقرب موسم الحصاد.

واهتزت جنبات الحجرة البسيطة، وهى تتسع لهم جميعا يرددون:

هلا تشمون الرائحة؟

جميلة؟ أليس كذلك؟

إنها التفاحة.

فى قلبى!!

مسكين يا قلبى..

مسكين.. مسكين يا قلبى!

●●●

ومرت لحظات صامتة.

وكانت عينا الإسكافى العجوز تبرقان كقطعتين من الزمرد الصافى! لقد اعتصر الرجل همه، وغسل بدموع الذكرى عينيه، فكان هذا البريق النفاذ المحير!

ونظرت إليه الزوجة الصبية، ثم نظرت إلى طفلتها لالى، فوجدت نفس البريق يطل من عينيها.

وعادت تنظر إلى يمين، ثم إلى اليسار، ثم تستدير إلى حيث كان زوجها قد استسلم للتأثر، واسترخى على اللحن العذب الجميل، ولم تدر الزوجة ماذا تقول!

إن لحظات الحب، كلحظات العبادة، تحتاج إلى الصمت، أكثر مما تحتاج إلى الكلام.

لكن أى حب؟ أهذا البريق الواحد فى العينين، رسالة غرام؟ وأى غرام؟ لقد اعترف الرجل بأنه يحبها، والاعتراف سيد الأدلة! هو إذن بريق العشق، يصل ما بين العاشقين، ليربط بينهما التيار!

وعاود الزوجة قلقها على ابنتها.

وكادت تعود إلى الموضوع، لعلها أن تفلح فى حمل العاشقين على التخلى عن الوهم ومواجهة الواقع.

لولا أن الإسكافى العجوز، أمسك بكفها البضة فى حنان! ما أذكاه! إنه يحاول أن يكسبها، لتلين له الحياة، بلا خصومة ولا خصام! لكن لا يا أيها العجوز! ابنتى طفلة لا تزال، ولن أدعها تتعذب، مع قرن وبعض قرن من الزمان!

وأفاقت الزوجة الصبية على الصوت العجوز يحكى لها القصة من أولها.

●●●

كان ذلك منذ سنوات طوال يا صبية، أنا لم أعد أقوى على حساب الزمن، ذاكرتى قد تعبت، ثم إنى لم أعد أجد ضرورة لإجهادها على كل حال، أذكر فقط أن ذلك قد كان منذ سنوات طويلة جدا ياابنتى.

حسنا! أنا رجل تزوج مرات! مرات عديدة! زوجتى الأولى كانت ريفية مثلك، يتفجر الدم من خديها، أما هى فقد ماتت، وأما أنت فلتعيشى هانئة وسعيدة ياابنتى!

يالسوء الطالع! أولادى منها قد ولدوا ليموتوا!. لم تترك لى المسكينة إلا العذاب!

وتزوجت سواها. كانت غجرية، شقية وممتعة. أحبتنى فى جنون، وتركت أهلها لتعيش معى.

لكنه حظى يا صبية! حظى كان يتعقبنى! أنجبت لى أولادا، ماتوا بدروهم كما مات إخوتهم من قبل، ثم ماتت هى الأخرى، لتسلمنى للوحدة القاتلة، والهم، والحزن، والاكتئاب، وكدت أقرر أن أعيش وحدى، حتى لا أفجع فى أولاد يولدون ثم يموتون، ثم تموت بعدهم أمهم، وهى فى سن الزهور، والتقيت بفارعة هيفاء، ملكت على حواسى كلها، فغيرت رأيى، ليتغير حظى.

لكنى طلبت منهـا ألا ننجب الأولاد، ويمـوت الأولاد، ثم تموت هى، وتثقل الهموم على قلبى يا صبية.

ومع ذلك تزوجنا، لتتكرر معنا نفس القصة. ننجب أولادا ويموت الأولاد ثم تلحق بهم أمهم!

ما أصعب أن يموت الأولاد يا ابنتى!

وقـضـيت سنوات من عـمـرى، عـزوفـا عن الزواج. كنت فلاحا أقيم على قمة جبل فأخذت أتسلى بالزراعة وأقتل نفسى بالعمل، حتى لاتثور رجولتى تطالبنى بحقها فى المتاع، ولا بأس ياصـبـيـة من هفـوة هنا، أو نزوة هناك.. لكن أن أرتبط بزواج، فلا.

حتى كنت ذات يوم فى السوق أبيع بعض ما أنتجته. كنت ماذا؟ عجوزا؟ حسن! فى الثمانين؟ ربما! فى التسعين؟جائز! أنا قلت لك إنى لم أعد أحفل كثيرا بالحساب! ذاكرتى قد تعبت يابنتى، ثم إنى لم أعد محتاجا إلى العد والتعداد!

على كل حال، فأنا لا زلت أذكر هذه اللحظة؟ لا أدرى! الإنسان ياصبية لا يختار ماذا يلصق بذاكرته من أحداث وماذا يضيع من جعبة الذكرى! هذه أشياء تحدث، ولا داعى لأن نفسرها،على طريقتكم، فى القياس والتحليل. كل ما يهمنى يابنتى أنى لا زلت أذكر هذه اللحظة، وهذا يكفى!



أكاد أستعيد كل شئ كما حدث تماما .

وأنا واقف فى السوق، أخذت أدور بعينى هنا وهناك. كنت أرقب من يتقدم لشراء ما حملته من قمة الجبل. لم يكن على أيامنا هذه التعاونيات التى تساعد الناس على التسويق. لم يكن على أيامنا هذا التنظيم الذى تعيشون فيه. كنا نعيش على عرقنا . وكان كل منا معلقا بجهده. لا الحكومة تساعد، ولا كان عندنا تنظيم، يدارى ضعف الضعفاء ويسوى بين المجد والخامل!

والتقيت عيناى بعينيها! كانت مثلى تنتظر حظها! تفتش عمن يشترى ما كانت تحمله من زهور!

تصورى يا صبية! أنا كنت أحمل الكرنب والبطاطس والباذنجان، وكانت هى تحمل الزهور! كنت أفتش عن حمال أثقال، يشترى بضاعتى، وكانت هى تنتظر مؤلف ألحان، يهتم بالبنفسج والورد والياسمين!

لكن عينيها قد ارتاحتا فى عينى!

وطالت نظراتها نحوى، وطالت نظراتى نحوها، حتى نسينا ما جئنا من أجله، فلم تبع زهورها، ولا أنا بعت خضرواتى.

وامتد بنا الانتظار حتى صرنا وحدنا.

واقتربت منها.. فاقتربت منى.

كانت حلوة، وكانت دافئة. لكنها كانت تصغرنى بعشرات الأعوام.

وأمسكت من ورودها وردة وشممتها، فأمكست من خضرواتى باذنجانه سوداء تدارى فيها حيرتها.

وجرى بيننا حديث.

- الوردة.. جميلة جدا.

- والباذنجانة.. قوية.. جدا.

- وعجوز.. جدا.

- لكن لذيذة.. جدا.

- وقد تكون.. مرة.. جدا.

- السكر المعقود أيضا، من شدة حلاوته.. يصبح مرا.. جدا.

- وتعافه النفس.

- أو تهواه.

- كيف؟

ـ ترده الى أجزائه.

ـ وتستطيع؟

ـ لتتذوق حلاوته.. قطعة قطعة.

ـ فإن تجمعت أجزاؤه.

ـ تعود تفرقها.

ـ فإن استحال الأمر عليها؟

ـ تلوم إذن.. عجزها!

ـ وما ذنبها؟

ـ لم يكون إلا.. ذنبها.

ـ والمركب؟

ـ ما شأن المركب؟

ـ يتداخل بالزمن، ولا يتفرق.

ـ الرغبة أقوى.

ـ حتى من الزمن؟

ـ نعم أقوى.

ـ تعنين.. الحب.

ـ والرغبة حب.

ـ لكن ليست الحب.

ـ تعنى ليست كل الحب.

ـ قد تكون مرحلة.. بعد الحب.

ـ وقد تكون مرحلة.. قبل الحب.

ـ وقد تكون هى وحدها الحب.

ـ وعندئذ.

ـ تتغلب على الزمن.

ـ وتستطيع؟

ـ يجب أن تستطيع.

ـ أنت رائعة.

ـ ربما..

ـ تتزوجيننى؟

ـ لتكفى مركب الزمن فى.

ـ وتظننى أستطيع؟

ـ بالرغبة.

ـ قبل الحب؟

ـ أو بعد الحب.

ـ والورد؟

ـ آخذه أنا.

ـ بالباذنجان!

وساد بيننا صمت ياصبية. وسرنا إلى أقدارنا، لنعيش معا، ولنحب أجمل وألطف وأرق نبت عرفته الطبيعة السخية.

كانت حياتنا معا ممتعة، وكان نبتنا أكثر متعة.

وما شعرت بالكآبة معها، ولا عندما وضعت زوجتى "لالى" الحلوة.

أخذت أنتظر وداع لالى، مثلما ودعت إخوة وأخوات لها من قبل. وزدت تعلقا بها، قبل أن أفقدها.

كانت سلوتى ومتعتى وصديقة عمرى كله. وبدلا من أن أفقدها، فقدت أمها.

وظللت أيضا مع لالى، ولـلالى. ومن أجل لالى. حتى صارت لالى هى بالفعل من عمرها.

صدقينى لقد ولدت معها من جديد.

أشترى اللعب لها، ولنفسى!

أقتنى الملابس، وأتخير ألوانا تناسبها وتناسبنى! أركب معها الأراجيح، لأهتز معها، وأشاركها الضحك.. حتى لغتى صارت لغتها! تعبيراتها الطفلة صارت تعبيراتى! نشوتها من أصغر الأشياء وأبسطها، صارت هى وحدها.. نشوتى!

وصرت أشب معها. أكبر معها. أقبل على الدنيا بنفس القدر، لا أسبقها. ولا أسمح لها أن تسبقنى.

نسيت عمرى ياصبية. نسيت تجاربى. كل شئ كنت أراه، كنت أراه للمرة الأولى، وكأنى لم أره من قبل أبدا. كل شئ كنت أسمعه، كنت أسمعه كأنما يطرق أذنى، دون أن يكون قد سبق إلى مسمعى! حتى الناس الذين معهم منذ عشرات طويلة من السنوات، نسيتهم، لأتعرف عليهم من جديد، مع "لالى"! وحتى الجيران والأقارب، سمعت أسماءهم، مثل لالى، فى المناسبات التى اعترضت حياتنا: لالى وأنا!

مسحت الماضى كله، لأبدأ حياتى من جديد، قدما بقدم مع لالى الممتعة الرائعة.

ولم أعد أنكر من تصرفات لالى شيئا يا ابنتى.

كنا فى سن واحدة! ولم يكن تفكيرنا مختلفا أبدا! تلعب ألعب معها! تحطم أشياء صغيرة، أساعدها على تحطيمها!

تجرى فى الشوارع والطرقات، أشاركها الجرى بقدر طاقتى! تخاصم أبناء الجيران أخاصمهم معها! تتصالح معهم، أتصالح معهم بدورى!

خطوة خطوة سرنا على الطريق. وكلمة كلمة تعلمنا صيغ التعبير. وعملا عملا شربنا تجربة الحياة!

شئ واحد كنا عاجزين عن علاجه، لنتساوى تماما. تصورى! كنت ألبس أنا أثوابا أكبر من أثوابها! أرقام أحذيتها! كانت تحب أن تلبس صندلا صغيرا تلعب به هنا وهناك وتمزق أجزاءه بين حين وحين، بينما كنت عاجزا عن مجاراتها فى تمزيق أحذيتى! لم يكن هذا ذنبى على كل حال ياصبية!

المهم أنى كنت أصحبها كلما قطعت صندلها إلى الإسكافى ليصلحه لها. وكان هناك إسكافى يتخذ من رصيف الشارع الذى يقع فيه كشكى الآن، مكانه المختار، لا أدرى هل كان هناك فندق أفخاذيا هذا، أم أن الفندق لم يكن قد أقيم بعد.

أظنه كان قد أقيم. على كل حال لا أريد أن أقطع بشئ. المهم أنه كان يجلس فى نفس المكان الذى اخترته. وكنت

آنس إليه وأحبه. فكنت أقصد إليه، ليصلح صندل لالى، كلما قطعته. أهبط الجبل، وأسير الهوينى، وهى فى يدى. أحدثها وتحدثنى. نتمازح فى مرح. نتبادل عبارات السباب.. أحيانا!! ثم نتعاتب فى ود، ثم نتصافى فى إخاء، ثم نعود نضحك ونعبث ونمزح وقد تجرى منى فألحقها، وقد أجرى منها أنا فتلحق بى!

وفى مرة صحبتها إلى الإسكافى.

هبطنا الجبل معا، وذرعنا الطريق إلى مكان الإسكافى. لكن شيئا لم آلفه قد كان يخيم على جو المدينة كلها.

أصوات الناس كانت عالية. موجات من الزحام كانت تمر بنا. متوترة الأعصاب. شئ من القلق كان يسيطر على الوجوه. وما كنا ندرى! أنا على الأقل لم أكن أدرى تفسيرا لما أرى. ولكن شعورا بالخوف باغتنى. وسيطر على.

وفى لحظة شعرت بسنى! وتجربتى! شعرت بأنى والد، وأنى مسئول عن لالى! لم نعد متساويين تماما فى هذا الجو الكئيب.

وخشيت أن أسحبها من يدها لأعود بها إلى قمة الجبل حيث أعيش. نعم خشيت يا صبية أن أحطم بيدى. ما بنيته مع

لالى، سنوات عمرى الأخيرة، وسنوات عمرها كاملة، لم أرد أن أصدمها، بإيقاظ ما كان بينى وبينها من فرق السن والتجربة.

وظللت أسير فى هذا الجو المتوتر، وأصوات الجموع ترن فى أذنى:

لابد من أن ندافع عن أرضنا.

إن هذه خيانة لا يمكن أن تمر دون نضال. لقد أقمنا حياتنا بإرادتنا، ولن نسمح لأحد بأن يتدخل فى أمورنا.

إن المساس بترابنا، دونه أعمارنا، وأجيالنا. نموت لنصون استقلال بلادنا.

ما معنى أن نعيش تحت الذل والتحكم والسيطرة؟ لقد تخلصنا من الاستبداد ولن نقبل أن يعود، فى أى ثوب، أو تحت أى شعار.

.. أنا ياصبية، أنا لم أكن أفهم تماما ما يقال. كنت فقط خائفا على لالى وعلى نفسى.

وانشغلت عن لالى، أرقب ما يدور حولى. كان كفها فى كفى، لكن نظراتى كانت تدور فى الوجوه من حولى، وسمعى كان مشدودا إلى الأصوات المتحمسة، المندفعة كالطلقات، لا تعرف كيف تقف أو تتمهل.

وأخذت أسير الهوينى، وكفى تمسك بكف صغيرتى!! تصورى يا صبية... لقد صارت "لالى" فى لحظة خطر صغيرتى! على كل حال.. وصلنا إلى مكان الإسكافى وكان صندل لالى فى يدى.

وفجأة انقلبت الأصوات المحمومة إلى مظاهرة صاخبة تهدر بهتافات عالية.

ومضت المظاهرة كالطوفان، تتسابق!

وكانت على أطراف الألسن عبارات وعيد لكل معتد على تراب الوطن. كانوا فيما بدا لى يتسابقون للتطوع فى صفوف المدافعين عن البلاد، ضد المتآمرين عليها.

وما شعرت ياصبية إلا وقد انسلت كف "لالى" من كفى، ورأيتها تجرى مع الجموع الصاخبة، ثم ابتلعتها الصفوف فلم أعد أراها!

وضاعت نداءاتى عليها فى زحمة الهدير الصاخب. وتاهت لالى عن عينى وصندلها فى يدى!

وسكت الرجل قليـــلا وهو يطيل النظر للالى، وكف الزوجة والصبية، لا يزال بين كفيه، وفجأة ارتفع صوته يردد فى هدوء:

كانت التفاحة عندى!

وارتفع مع صوته صوت الأسرة الملتفة حوله: وعلى فرعها مالت تتأرجح!

وحركتها كانت رشيقة، كبجعة بيضاء!

وذات مساء. والشفق وردى كخديها. اختفت التفاحة عن عينى! وأبت أن يكون لها عندى مكان، إلا فى قلبى!

مسكين.. مسكين.. ياقلبى.

- ليتنى ما ذهبت!

- لكن لماذا؟

- لأنى عدت بأسوأ الأخبار عنها.

- كيف هذا؟

- لقد ذهبت المسكينة.

- أواثق أنت؟

- وزرت قبرها. إنه جميل.. وفوقه شجرة بنفسج مزهرة.

- قد يكون قبرا آخر؟

- فى تبليس يحافظون على قبور موتاهم ويعنون بها.

- ومن يزور قبر "لالى" المسكينة؟

- كل الناس. إنهم يعرفونها تماما.

- لابد أنها كانت عظيمة.

- كانت زعيمة مناضلة وشجاعة.

- وأبوها لا يعرف!

- عجوز مثله قد لا يتحمل..

- من تحمل هذه السن الكبيرة، سيتحمل هذا النبأ.

- ومن يجرؤ على أن يخبره به؟

- أنت. ألم يقتنع بأن تنوب عنه لتتحرى أخبارها فى تبليس؟ إذن أصبح عليك أن تخبره عما وجدت.

- مستحيل... أنا لا أقوى.

- وماذا تقول له عن نتيجة رحلتك؟

- أى كلام غير هذا.

- تكذب؟

- حتى لا أقضى عليه.

- لا.. لابد من إخطاره.

- أقول لك.. لالى تحمل له الخبر. أعنى سوزى.

- يا شيخ. أنت والله تريد أن تقضى عليها.



ـ لماذا؟ إنها صغيرة لا تعى!

ـ إنها تحبه.. وستبكى من أجله دم عينيها.

ـ إذن...

ـ أنت تقول له.

ـ إنك دائما تضعيننى فى مواقف سخيفة.

ـ أنت الرجل.

ـ آ..!! فى هذا أنا الرجل!

ـ يا عزيزى لا.. من فضلك. لا داعى للهرب.

●●●

وذهب الفلاح إلى الإسكافى العجوز. كان طول الطريق شاردا، يحسب للمقابلة ألف حساب.

ماذا يكون وقع النبأ عليه؟ قد يموت! إن موت لالى معناه نهايته.

وفى الطريق رأى جموع الناس. هذا يضحك، وتلك تتمايل. وهذه تتدلل. وجموع كثيرة تناثرت على مقاهى المدينة. تشرب القهوة، وتدير الفناجين، لترسم "التنوة" خطوط الحظ!

وصعب عليه أن يسير فى موكب الأحياء، ومعه خبر عن الموت!

وما إن اقترب من الكشك، حتى وصلته وهو بعد على رصيف الشارع المؤدى إلى فندق أفخاذيا، أطراف الأغنية التى عاشت على شفاه المدينة سنوات طوالا.

كانت الريح تعصف هذه المرة بكلمات الأغنية فتصله مقطعة الأوصال، كأنها أشلاء!

... التفاحة..!

وعلى فرعها...!

... كبجعة بيضاء!

وشعر فلاح أفخاذيا وهو يسير، أنه يردد مع هذه الأصوات كلام الأغنية.

وذات مساء، والشفق وردى كخديها.

اختفت التفاحة عن عينى!

وسكت الرجل، وهو يمسح عن عينيه دمعة رطبت خده! وكانت الأغنية قد وصلت إلى منتهاها، فختمها مع الأصوات التى تردد هذه النهاية صائحا كأنما يولول:

مسكين يا قلبى.

مسكين.. مسكين.. مسكين يا قلبى!

وقال لنفسه:

وأنا مسكين معك يا قلبى. الرجل لا يدرى شيئا عما حدث لوحيدته، لكنك أنت تدرى.

وقد تكون المعرفة نورا فى بعض الأحيان، لكن من النور ما يخطف البصر كذلك، من شدة مايبهر!

وكان الفلاح قد وصل.

وكان الإسكافى العجوز محنيا يرقع حذاء قديما، وكانت عيناه مثبتتين على فردة الحذاء فلم ير صديقه القادم إليه.

وأخذ الأسكافى يدندن. يرسل صوتا مخنوقا منغما حينا ومطلقا من نغمه حينا. لاشك أنه كان يبكى!! كانت دموعه تخترق ضلوعه، فى صمت وكبرياء!

وطالت الوقفة أو أن الفلاح الملهوف ظنها طالت.

وما إن فرغ الإسكافى العجوز من مهمته. حتى أطل إليه بعينين مثقلتين، وابتسم وهو يدعوه للجلوس إلى جواره.

وبدأ الرجلان يتحدثان.

ـ متى عدت؟

ـ منذ قليل.

ـ ما حال تبليس؟

ـ بخير.

ـ والناس هناك.

ـ على عادتهم يمرحون.

ـ ولالى رأيتها؟

ـ نعم يا جدى.. رأيتها .

ـ حلوة.. على عهدها . أليس كذلك؟

ـ وعظيمة.

ـ أعرف أنها عظيمة. لكن ما رأى الناس فيها؟

ـ يجلونها إجلالا فوق الحد.

ـ يا ..! لماذا؟

ـ لأنها عاشت بطلة.

ـ وستموت بطلة.

ـ على كل حال... إنها ابنتك.

ـ تعنى أنى أتعصب لها؟

ـ بل أعنى أنها أخذت عنك.

ـ ماذا أخذت عنى؟ لا شئ. أنا كما ترانى رجل بسيط.

ـ لكنك رجل قوى.

ـ القوة ليست فى البدن، ولا فى طول العمر. القوة فى الإرادة.

ـ والإرادة تنعكس على الأبدان.

ـ أبدا أحيانا تقصف الإرادة أعمار الناس.

ـ تعنى أنه كلما قويت الإرادة قصرت الأعمار؟!

ـ أحيانا. إن طول العمر يابنى سببه خلو البال.

ـ والإرادة لا تتعارض مع خلو البال.

ـ بل لابد أن تتعارض.

ـ لماذا يا جدى؟

ـ لأن الإرادة معناها عقل مشحون بأفكار كثيرة.

ـ يا سلام!

ـ وقلب ملئ بعواطف كثيرة.

ـ كذلك؟

ـ نعم.. والاثنان يصبان فى الإرادة.

ـ أنت فيلسوف يا سيدى.

ـ الله يسامحك.

ـ هل أخطأت؟

ـ الفيلسوف تعيس جدا يا صديقى.

ـ تعيس؟!

ـ طبعا، لأنه دائم التفكير والقلق. ثم إنه يعانى من إرادته.

ـ أهى مرض.. الإرادة هذه؟

ـ وباء!! تصور وباء!!

ـ هذا غريب.

ـ الذين يتصدون للتغيير تلزمهم إرادة من حديد، وربنا يابنى لا يعطى دون أن يأخذ.

ـ فماذا يأخذ نظير هذه الإرادة؟

ـ الصحة والعمر.

ـ تعنى أن الفلاسفة يكونون قصار العمر؟

ـ ومعلولى الصحة والأعصاب.

ـ يا..!!

ـ ومثلهم الفنانون ورجال الحكم والسياسة، كل المشاهير مرضى!

ـ دائما..؟

ـ غالبا قلت لك.

ـ وكلهم يموتون صغارا؟

ـ أصغر منى على الأقل!

ـ ماذا أقول لك؟

ـ قل.. ماذا تريد أن تقول؟

ـ لابد أن لالى كانت فيلسوفة! وأنها كانت مشهورة! وسكت الإسكافى العجوز، وأخذ يطيل النظر إلى صديقه الفلاح.

وحاول أن يقف فخانته يداه. ثم حاول أن يقف، فخانته ساقاه. ثم استجمع قواه، واستقام عوده هذه المرة، وأخذ يقترب من صديقه، الذى وقف قريبا منه، وهو يتفادى نظراته!

وبعد أن استجمع الشيخ قواه، قال:

ـ تعنى..؟

ـ نعم.. تماما!

ـ منذ متى؟

ـ لا أدرى على وجه التحديد.

ـ أين..؟

ـ فى الحرب... هكذا يقولون!

ـ تعنى أنها استشهدت فى سبيل بلادها؟

ـ نعم ولا تزال ذكراها تملأ أخيلة الناس بالبطولة والفداء.

ـ وأين وضعوها؟

ـ فى قبر فى تبليس.

ـ وقبرها.. جميل؟

ـ ويزار كل صباح.

ـ من يزورها؟

ـ كل الناس.

واعتدل العجوز فى وقفته، وانتصبت قامته، كمن استعاد شبابه، وأخذ يغنى أغنيته فى صوت جهير رائع:

كانت التفاحة عندى!

وعلى فرعها كانت تتأرجح!

وحركتها كانت رشيقة، كبجعة بيضاء!

وذات مساء. والشفق وردى كخديها.

اختفت التفاحة عن عينى!

وأبت أن يكون لها عندى مكان.. إلا فى قلبى!

مسكين يا قلبى!

مسكين.. مسكين.. ياقلبى.

●●●

وسكت الاسكافى العجوز ليسأل:

ـ قلت إنها ماتت؟

ـ نعم يا سيدى.

ـ فى الحرب.. قلت؟

ـ نعم يا سيدى.

ـ أمتأكد أنت...

ـ هكذا يقولون فى تبليس.

ـ وهل رأى أهل تبليس هذه الحرب، وتأكدوا أنها...

ـ لا يستطيع أحد أن يزعم أنه كان معها فى الحرب، وأنها...

ـ ... يا بنى..! هكذا يتناقل الناس الأخبار!

ـ تعنى ماذا يا جدى؟

ـ أعنى ما أقول... على كل حال قل لى... ماذا يقول الناس فى تبليس؟

ـ عن ماذا يا جدى؟

ـ عن لالى.

ـ بطلة.. وشهيدة.

ـ هذا أفضل.

ـ إنها عندهم رمز لتضحية شريفة رائعة.

ـ وقبرها فى تبليس؟

ـ وردى كخديها.

●●●

وضحك الإسكافى ضحكة مغموسة فى الدمع، وقال وهو يمسك بذراع صديقه الفلاح:

ـ وتموت دون أن تقول لى؟!

ـ الإنسان لا يستأذن قبل أن يطويه الغيب!

ـ أو تعرفون الغيب؟

ـ هذا شئ فوق الإنكار.

ـ جميل لكن كان عليها أن تقول لى إنها تنوى أن تموت!

ـ الموت يأتى فجأة يا جدى.

ـ لكن أنا ولالى.. كنا.. ولا نزال جسما واحدا، وروحا واحدة.

ـ ألم تقل أنت يا جدى إن الغيب شئ فوق قدرة البشر، لا يعرف عنه أحد شيئا...

ـ لكنى.. أبوها.

ـ الآباء قد يتدخلون ليولد لهم أبناء... لكنهم لا يتدخلون عندما يموتون!

ـ لو أنها قالت لى...

ـ هبها قالت لك... ماذا كنت تستطيع أن تفعل؟!

ـ كنت نصحتها ألا تفعل.

ـ ألا تفعل ماذا يا جدى؟... ألا تموت؟

ـ أستغفر الله يابنى. الموت شئ مكتوب.

ـ إذن...

ـ كنت نصحتها أن تتفادى أسباب الموت.

ـ كيف يا جدى؟

ـ أنتم يا جيل هذا العصر مخدوعون. تسمعون وتصدقون.

ـ فى الحرب ـ كما فى الحب ـ لا خداع.

ـ وبعض الحب وهم.

ـ .. لكن الحرب.

ـ وبعض الحرب نزق.

ـ لكن الحربِ من أجل الوطن...

ـ كلمات غليظة هذه.. قل لى لماذا يحارب الناس؟

ـ ليحققوا هدفاً.

ـ أى هدف؟

ـ أن يحمى الإنسان حريته على أرضه.

ـ فإن حارب ليزداد عبودية؟!

ـ يا جدى.. لا تقل هذا الكلام.

ـ لماذا يا ولدى؟

ـ هذا كلام يقود...

ـ إلى السجن.. أعرف.

ـ وربما..

- إلى الموت تعنى.. لا يهم طالما أن لالى قد ماتت.

- لالى ماتت فى الحرب،

- يا ولدى يا مسكين. أفتظن أنى لم أعرف بموتها.

- إذن كنت تعرف قبل أن أذهب؟

- وتركتك تذهب، وأنا أعلم تماما أنهم قتلوها.

- قتلوها..؟

- وداروا فعلتهم، بتصويرها بطلة شهيدة!

- يا خبر اسود.. هذا.. ماذا؟

- زيف! ككل شئ تحيون عليه.

- إذن نكشفه.

- لاتستطيعون.

- لماذا؟!

- يصبح مصيركم مصير لالى الشهيدة.

- وما مصلحتهم فى هذا؟

- أن تظل سيطرتهم على عقولكم لا تهتز! أن تظل نداءاتهم مقدسة! أن تظلوا مخدرين بالهتافات والنداءات، تتحركون كالدمى!

ـ وهل كشفت لآلى هذا؟

ـ طبعا... ابنتى... بنت الجبل الشامخ الحر.

ـ وكيف...؟

ـ نفذت إلى داخلهم فعرفتهم على حقيقتهم.

ـ وماذا حدث؟

ـ لم تفعل إلا أنها طلبت أن تخرج من اللعبة.

ـ وهذا حقها.

ـ أبدا... إن خروج واحد عنهم خطر عليهم.

ـ وأى خطر؟

ـ إنهم لا يسمحون لأحد بالدخول إلا بعد تحريات، وبعد عناء، وبعد اختبارات، ليوهموا الناس أن الدخول إليهم دخول إلى الجنة.

ـ لكن الناس يدخلون بإرادتهم.

ـ ولا يخرجون بإرادتهم!

ـ لماذا يا جدى؟

ـ لتظل الجنة حلم ملايين الصغار.

ـ حتى لو أنها جنة، فإن فرضها يجعلها جحيما.

ـ هنا أحذرك أنا من كلام كثير فارغ.

ـ وهل كنت تعرف نهايتها؟

ـ نعم كنت أعرف.

ـ وفيم أرسلتنى إذن؟

ـ الوالد هكذا، ينكر حتى الحقيقة عن ضناه!

●●●

وبينما كان الإسكافى العجوز مشغولا بهذا الحوار، مرت مظاهرة للشباب هادرة، ترسل صيحات غاضبة.

وكانت النداءات محمومة:

لتسقط الإمبريالية.. أعطونا السلاح لنحارب الإمبرياليين فى فلسطين. يحيا التضامن مع العرب.

وأمسك الإسكافى العجوز ذراع صاحبه وهو يسأل:

ـ أفكانوا ينادون بالحرب؟

ـ نعم ياجدى.

ـ ولماذا لا يحاربون؟

ـ لأن الحرب بعيدة.

ـ ومن أجل هذا يطلبونها؟

ـ لا أدرى!

ـ لو أنها قريبة، أفكانوا يحاربون؟

ـ ربما... إنهم متحمسون على كل حال.

ـ متحمسون!.. متأهبون!.. مستعدون!. بالأمر!

ـ لماذا بالأمر؟

ـ حقك على... آسف... بالإيحاء!

ـ ولماذا بالإيحاء؟

ـ حقك على مرة ثانية... بالتخدير!

ـ يا جدى..!

ـ أفمن يريد الحرب، يهتف؟

ـ الحرب تبدأ بنداءات الحرب.

ـ الحرب العظمى الأولى، أو الثانية، أو أى حرب.. هل بدأت بنداءات؟

ـ لا أذكر.

ـ الحرب حرب. والذين يريدون الحرب. يعرفون الطريق إليها.

ـ وأليس هذا هو الطريق؟

ـ طريق الهتافات، ليس هو الطريق.

ـ إذن ما هو الطريق؟

ـ هو ما سأفعله أنا..

ـ أنت... يا جدى؟

ـ نعم... أنا.

ـ كيف.. يا جدى؟

ـ سأذهب لأحارب مع العرب.

ـ .. وحدك؟

ـ نعم وحدى.

ـ لماذا؟

ـ ليعرف العرب أن فى هذه البلاد واحدا... واحدا فقط، لا يخدعهم بالهتاف.

ـ لكنك.. يا جدى...

ـ أعرف.. سنى وعجزى.. أليس هذا قصدك؟

ـ أستغفر الله.

ـ يكفينى أنك تذكر الله.. حياء من موقف جيلكم هذا.

ـ جيلنا صعد إلى القمر.

ـ وهوى فى قاع الشعارات الجوفاء.

ـ وهل تعنى أن تحارب؟

ـ وأريد أن أموت، كما ماتت تفاحتى.

ـ لكنك تقول إنهم قتلوها .

ـ وسيقتلنى.. عجزى.

ـ وكيف تذهب؟

ـ بالباخرة يابنى.

ـ وهل ينتظرونك حتى تذهب؟

ـ ولماذا تريد أن تفت فى عضدى؟

ـ إنى لا أفهم شيئا .

ـ لا تفهم ماذا؟

ـ لا أفهم لماذا الهتاف، لصالح العرب.

ـ لعبة السياسة يابنى! ماذا يضيرنا لو هتفنا؟

ـ وماذا نكسب لو هتفنا؟

ـ نكسب العرب، ولا نخسر شيئا .

ـ وماذا نكسب من وراء العرب؟

ـ اسأل أنت لتعرف... وستعرف.

- ولا تزال مصرًا على الحرب ياجدى؟

- طبعا، وستقوم أنت بالترتيبات اللازمة.

●●●

وعندما كانت الباخرة توغل فى مياه البحر الأسود، فى طريقها إلى مصر، كان الإسكافى العجوز واقفا على سطحها، يسند نفسه بذراع، ويرسل بالأخرى إشارات وداع لرصيف الميناء، وكانت سوزى وأمها وأبوها يبادلونه إشارات الوداع، وقد تساقطت على خدودهم الدموع.

●●●

وعندما وصلت الباخرة إلى مصر، كان الإسكافى العجوز، يشد قامته فى كبرياء وثقة. استعاد شبابه كله، وأخذ يتعجل الزمن للهبوط إلى أرض الصراع، ليشارك فى المعركة، وليبحث لنفسه عن ميتة بطل، مثلما فعلت "لالى".

وكان قد دأب طوال الرحلة على أن يطلق أغنيته، ليرددها معه بحارة الباخرة وركابها.

وكان يعرف أن الباخرة تسير على بحر من البارود.

لكنه مع هذا كان يغنى أغنيته الحبيبة، ويغنيها معه كل من كان على ظهر الباخرة.



وعندما وقفت الباخرة على الرصيف المصرى. صاح الرجل فى صوت شاب يسأل:

- من ذا سيعطينى السلاح؟

وهز قبطان الباخرة رأسه، وهو يقول له:

- لا أحد ياجدى.

- لماذا يابنى؟... أنا قادم للحرب.

- لأن مجلس الأمن قد قرر وقف إطلاق النار.

وصمت الرجل فى حزن وأسى، ثم قال:

- لكن لماذا يسمعون كلامه؟ لماذا نفذوا أمره؟

- لأنه مجلس الأمن، ولأنهم قوم متحضرون.

- لكنى غاضب منهم، وغاضب كذلك من مجلس الأمن.

- لماذا يا جدى؟

- كان بوسعهم أن ينتظروا بضعة أيام، ليعطونى فرصة لأموت.

●●●

وبينما هو يهبط رصيف الميناء مضى الرجل يطلق أغنيته، وجموع البحارة والركاب تغنى معه:

كانت التفاحة عندى!

وعلى فرعها، كانت تتأرجح!

وحركتها كانت رشيقة كبجعة بيضاء!

وذات مساء. والشفق وردى كخديها،

اختفت التفاحة عن عينى!

وأبت أن يكون لها عندى مكان.. إلا فى قلبى!

مسكين.. مسكين يا قلبى!

مسكين.. مسكين يا قلبى!

التفاحة مخبوءة فى طياتك.

ويمر عام وعام وعام.. وهى قابعة فيك.

لكن رائحة التفاحة.. نفاذة.

وهى تتضوع فى كل كيانى.

ليشمها كل الناس من حولى!

هل تشمون الرائحة؟

جميلة؟ أليس كذلك؟

إنها التفاحة.

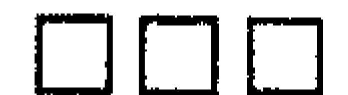
فى قلبى!!!

مسكين يا قلبى!

مسكين. مسكين يا قلبى!!

وكان الرجل قد هبط إلى الأرض المصرية، وكان صوته قد صار نوعا من حشرجة الموت، بل لقد كان بالفعل حشرجة الموت!

لقد سقط الطبق المشروخ، وما كان معه شئ، إلا خيال التفاحة والصندل البنى الصغير.. المقطوع!







السيد قشطه

اسمه: "السيد"!

مجرد واحد، من آلاف أهل القرية، يذهب ويجئ، ككل أبناء القرية، من غير تمييز.. كأنه رقم من الأرقام!

وفجأة.. صار الرقم.. شجرة!

.. شجرة "قشطة"!

"والقشطة".. أيضا شجرة.. يا سيد!

ويقسم "السيد" أن "القشطة" شجرة، وأنهم يزرعونها فى مصر!

أنا رأيتها يا ناس.. رأيتها بعينى.. وأكلت من "قشطتها"!

- "كقشطة" بلدنا؟

- .. وأحسن!

- بلاش فشر!

- أقول لكم.. إيه؟ بعينى رأيتها.

- يمكن اتهيألك.

- طب واتهيألى كمان أنى أكلتها؟!

هو الأكل كمان فيه تهيؤات؟!

ومضى "السيد" يحكى عن شجرة "القشطة" وعن جذعها الجميل البض!.

تماما كالغزية التى رقصت فى فرح بنت العمدة لاهى رفيعة "كالسنارة"، ولا "تخينة" كالجميزة!

لكنها كانت بضة بمقدار، أما عودها فقد كان طريا وملفوفا!

ومص الأولاد ريقهم، وهم يستعيدون ليلة فرح بنت العمدة، وما كان فيه.

وأهم ما كان فيه "الغزية"، التى راحت تتمايل بين صفوفهم، كالملبن!! وتهتز تحت ضوء الكلوبات، كالمهلبية!! وتركتهم يعانون من أحلام لذيذة.. لذيذة تخدر الأعصاب!

شجرة "القشطة" لها جذع، كعود "الغزية"!!

أما أوراقها يا أولاد، فخضراء.. عريضة.. وداكنة.. داكنة من شدة اكتناز اللون فى بطن الورق.

- تعرفوا شفايف جمالات.

- آه.. جمالات الصبحية؟

- بياعة القماش والمناديل.

- عفارم عليكم. أهو ورق القشطة، زى شفايفها!

●●●

وشردت خيالات الأولاد فى جمالات، ذات الشفتين المكتنزتين، والداكنتين من شدة الاكتناز.

وقال عنها بعض أولاد القرية: من الصحة!

وقال بعضهم الآخر: بل من الشهوة!

وقال بعض ثالث: إنها النعمة!

وأيا كان الرأى، فقد كانت تحضر إلى القرية صباح كل ثلاثاء.. ممتطية حمارها الأسود، وعلى جانبيه خرج مملوء بأصناف القماش.. المناديل المحلاوى للرجال، ومناديل "بأوية" .. مشغولة للعرائس! وغير مشغولة للأمهات!

وصارت عادة رجال القرية أن ينتظروا جمالات صباح كل ثلاثاء، ليشتروا، أو ليتفرجوا.. على جمالات أكثر مما يتفرجون على القماش!

وقلما يغيب عن القرية، صباح أى ثلاثاء، رجل.. من أجل جمالات!

وقلما تغيب عن القرية، صباح أى ثلاثاء، امرأة.. خوفا من تأثير جمالات على الرجال!

وقلما تغيب عن القرية، صباح أى ثلاثاء، فتاة.. رغبة فى تقليد جمالات فيما تظهر به من حسن وأناقة!

وجمالات بالشفتين المكتنزتين.. تحول صباح الثلاثاء فى القرية، إلى حلم رقيق ناعم. وفى الأحلام تزول المحظورات! ويمارس الرجل ما يشتهى، بلا حساب! إنه يحلم، وهل فى الحلم حساب!!

وكالرجال النساء، أحلامهن - ككل الأحلام - بلا حدود! تتحلل كل امرأة من القيود، ويصبح كل شئ مباحاً بلا مسئولية!

أما عذارى القرية، فما أمتع أحلامهن الطليقة، وهى تبحث عن المجهول!

وعندما تتحول القرية، صباح كل ثلاثاء، إلى حلم، فإن شفتى جمالات الصبحية. كما أطلقوا عليها، تصبح أجمل عناصر الحلم اللذيذ!

كل رجل يتصور الشفتين العريضتين المكتنزتين له وحده!

وكل امرأة تتصور أن شفتيها هى أجمل من شفتى جمالات، وأن نظرات كل رجل مثبتة على شفتيها!

وكل فتاة تستعير من جمالات انتفاضات الشفتين، وهما تخترقان قلوب الفتية التائهين!

وتعرف جمالات سرها، فتستعمله فى ذكاء، وتمنعه عن المعجبين.. أيضا فى ذكاء.

●●●

ويعود السيد يحكى.

جذع "القشطة" كجذع "الغزية" التى سيطرت على أخيلة الرجال منذ كان العمدة يحتفل بزواج ابنته.

وورق "القشطة" أخضر داكن عريض، كشفتى جمالات الصبحية.

أما "القشطة" نفسها، فشئ فوق العقل:

- وطعمها يا سيد؟

- لذيذ فوق الوصف.

- ولبنها بقرى أم لبن جاموس؟

- شجرا. شجرا!

- والشجر. يحلب لبنا؟

- نقول "طور" يقولوا احلبوه!.

- عرفنا.. طيب شجر.. والشجر لا يغش اللبن؟

- اللهم طولك يا روح.

- قشطة فى شجرا دا القيامة حتقوم يا اولادا

- النبقة على الجسر، ماذا تثمر؟

- نبق!

- والتوتة عند الساقية؟

- توت!

- والجميز عند الرياح؟

- جميز!

- هذه شجرة قشطة.. بدل النبق والجميز والتوت

- آهو كده! مش كنت تقول كده؟ دلوقتى فهمنا!

●●●

وتتجمع القرية حلقات.. فى الجرن، أو حول الساقية، أو على المصاطب فى الليالى القمرية، والجو ربيع، ولا حديث لها إلا السيد.. "السيد قشطة"!

كان أبوه ـ رحمة الله عليه ـ رجلاً صالحاً، وكان كذلك مجتهداً.

وعاش "عم متولى"، مستورا.

لم يملك فى حياته، إلا بقرة، وامرأة.. ماتت بعد أن أنجبت له "السيد" هذا، شريطاً رفيعا، كانت تنبت فيه أعواد "الحلفا" المحروقة المدببة الأطراف كالشوك، حتى استأجر "عم متولى" هذا الشريط الرفيع من السكة الحديد، وعاش عليه.

"عم متولى" حول أعواد "الحلفا" إلى خضروات، فجل وجرجير وكرات، وعلى حافة الشريط كان يزرع شجيرات البامية.. أحيانا، أو شجيرات التيل.. أحيانا أخرى.

وعند طرف الشريط الرفيع، أقام خصاً صغيراً من الخوص؛ أوى إليه، هو وامرأته وبقرته، ليحمد الله على نعمائه.

وعندما حملت امرأته، كانوا يقولون له:

ـ ابسط يا "عم متولى". حيجيلك ولد.

وكان الرجل يبتسم ابتسامة عريضة وهو يقول:

ـ ولد بنت. كله رضا.

لكنه كان يتمنى أن تتحقق نبوءة الفلاحين الذين يبشرونه بالولد.

وتحققت النبوءة، فوضعت امرأته ولدا سماه "عم متولى". "السيد".

لكن "أم السيد"، لم تعش بعد ولادة "السيد" إلا أياما، وانتقلت إلى رحمة الله.

.. وفى القرية لا يحار الناس أمام مشكلة موت الأمهات، فإن أمهات كثيرات قادرات على إرضاع الوليد، وأمهات أخريات مستعدات لفتح بيوتهن لأطفال يتامى، يتدحرجون مع أطفالهم فى صحن الدار، أو فى الطريقات، تربيهم الطبيعة، وطين القرية، ووحل الشتاء، وتراب الهجير!

وعاش "السيد" مع أتراب له، يمص بشفتيه أثداء نساء لم يلدنه! وينزوى فى ليالى الشتاء، فى أحضان نساء لم يرتبط بهن برباط!

وكم من امرأة قبلته!

وكم من عذراء اعتصرته بين نهدين نافرين:

وأخذ "السيد" ينمو، فتنمو فيه الرغبة، فى قبلة تلهب مشاعره، أو حضن يثير خواطره. وصار "السيد" فتى!

وصار أحب شئ إليه. مجالس النساء!

وأصبح عليه أن يعيش فى خصه على طرف الشريط الرفيع من أرض السكة الحديد!

وأصبح عليه كذلك أن يساعد أباه.

لكنه كان يشعر أنه منجذب إلى النساء اللائى عرفهن، وإلى الفتيات اللائى كان يتدحرج معهن على أكوام السباخ فى طرقات القرية.

وبدأ يتنبه إلى أشياء فيهن، لم يكن يلتفت إليها من قبل.. إن للعيون لسحرا. وللشعور، وللشفاه، وللسيقان، وللصدور، وللنحور.

كل تلك أجزاء فيها فتنة، وفيها إغراء.

وأخذ يندم على أيام، كان يستطيع فيها أن يستمتع بكل هذه المفاتن، لولا أنه كان مغفلا! لم يتنبه إلى هذا الإغراء!

●●●

وكان "السيد" فى وضع خاص، من اعتبارات أهل القرية.

كان دائماً الطفل اليتيم الذى ماتت أمه عقب ولادته، فكان الإشفاق عليه، شافعا له، فيما يقوم به من زيارات.

ولم تثر زيارات "السيد" للنساء فى بيوتهن انتباه أحد، فقد تربى فى هذه البيوت، وفى حجور نسائها.

وكانت هذه هى نعمته الكبرى!

.. والعـذارى من بنات القـرية كن ينظرن إليـه نظرة الأخ، فقـد رضـعن معـه من ثدى واحـد، وتدحـرجن معـه على تراب واحد، أو حصير واحدة.

وكان ذلك يؤذيه!

إنه بشر، وله قلب، وله عواطف.

ثم هذا الحسن الفتاك، فى العيون الحور، والأعواد الملفوفة، والشفاه الحائرة، والنهود النافرة، والسيقان المستقيمة كأعواد الخيرزان!

أفهذا كله عليك، يا أيها "السيد"، حرام!!

أفعقاب هذا لأنك شببت معهن، فأصبح حسنهن عليك محرما!!.. وكيف؟!

●●●

.. ولم يكن "لعم متولى" فى القرية أقرباء.

لقـد مـات أهله عن آخرهم، الا ولد واحـد، هاجـر إلى مصر، ليعمل فيها، ومنذ هاجر لم يعد غير مرة، وهو يرتدى "الجلابية والطربوش".

وعندما تجمع حوله أهل القرية، ليرحبوا به، أخذ يحكى لهم كلاما كثيراً عن مصر، وشوارع مرصوفة تلمع كالمرايا! وبيوت عالية من طوابق عديدة، يسكنها قوم كبار.. كبار

جداً.. يسكب الواحد منهم أكثر من عشرين جنيها فى الشهر!

ـ ويتزوج بالقليل.. أربع مرات.

ـ أبدا.. مرة واحدة.. بالكثير!

ـ .. ويعمل إيه بالفلوس يا سيدنا الأفندى؟

ـ هيه الفلوس بتقعد؟

ـ ما دام قادر، ميتجوزش ليه؟

ـ بندر.. البندر كده.

ـ البندر مش رجاله يا سيدنا الأفندى؟

ـ مصاريف البندر كثير.

ويمضى عبد الواحد أفندى يتحدث عن عمله، فى البساتين، حيث حدائق واسعة وجميلة، مليئة بأشجار الفواكه والزهور.

ـ دى لازم بساتين الملك.

ـ أبدا. إحنا فين والملك فين.

ـ بساتين الملك أحسن كمان؟

ـ بكتير.

- أمال بساتين مين أمال؟.. واحد باشا ؟!

- لا.. لا.. بساتين وزارة الزراعة.

- والوزارة لها كمان بساتين؟

- أمال.. لازم.

- والوزارة تعمل إيه بالبساتين يا عبد الواحد أفندى؟

- تزرع فيها الحاجات الجديدة.

- قال بطلواده واسمعواده! جديدة إيه يا أفندى؟

- الزراعة الجديدة.

- هيه البامية فيها قديم وجديد؟

- وهيه كل الزراعة بامية؟

- الشعير. القمح. الذرة.. النخل! فيه إيه جديد فى الحاجات دى، يا سيدنا الافندى؟

- سمعتوا على المانجة الهندى؟

- ولا اللاوندى!

- سمعتوا على العنب الأرضى؟

- سمعتوا على برتقال من غير بذر؟

- أبدا والله.

- آهى بقه البساتين بتجرب الحاجات دى كلها.

وأخذ أهل القرية يخبطون كفا على كف، و "عم متولى" فخور جدا بقريبه الوحيد الباقى له على ظهر الدنيا.

وعندما عاد عبد الواحد أفندى إلى عمله فى القاهرة، كان قد خلف وراءه موضوعات كثيرة جدا، يتحدث عنها أهل القرية، وألوانا من المزاح كثيرة جدا، يتمازحون بها فيما بينهم، وفى سهرات الليالى، عندما يحلو السهر.

●●●

"سمعتوا على التوت من غير توت ياولاد!!"

ويضحك أهل القرية، حتى يكادوا يستلقون على أقفيتهم!

●●●

"سمعتوا على الذرة من غير قوالح يا جهلة!!"

ويضحك أهل القرية فى صخب، حتى ترتج أجسامهم!

●●●

"سمعتوا على بلد، من غير عمدة يا رجالة!"

ويضحك أهل القرية حتى تدمع عيونهم!

●●●

.. وتعيش القرية لحظات تعيسة، حين يتعرض "عم متولى" لمرض لا يستمر طويلا، ثم تكتب فى قرافة القرية شهادة وفاته..

ويصبح "السيد" يتيم الأب والأم، بلا أهل إلا عبد الواحد أفندى، الذى يعمل فى بساتين وزارة الزراعة.

والقرية بطبعها عطوف، شديدة الرعاية للمنكوبين من أبنائها، وقد وضعت "السيد" بين عينيها.

صار الخص الذى يعيش فيه، مزارا لكل أهل القرية. يحملون إليه الطعام والشراب وعلب الدخان، ليرفهوا عنه. ثم يعملون معه ليظل الشريط الرفيع الموازى لشريط السكة الحديد أخضر، بالفجل، والكرات، والجرجير، وشجيرات البامية.

لكن "السيد" مع هذا ظل حزينا، كاسف البال.

قال له عمدة البلد:

إذهب لزيارة أولياء الله فى مصر، وسيرحب بك عبد الواحد أفندى بطبيعة الحال.

وأجاب "السيد" بأنه سيفعل بعد أن تمر المواسم.

ولم يكن العمدة، ولا الأعيان، ولا الأهالى بغافلين عن حاجة "السيد" إلى المال اللازم لرحلته إلى مصر.

لكنهم انتظروا مرور المواسم، ثم حملوه حملاً إلى محطة السكة الحديد، وسفروه إلى مصر ليزور أضرحة أولياء الله الصالحين، ويعود بروح جديدة، تمكنه من التغلب على آلامه.

قالوا له وهو يطل من نافذة قطار يركبه لأول مرة:

الزراعة علينا، كأنك هنا.

قال والدموع فى عينيه:

وماذا وضعتم فى هذه القففـ؟

ولم يرد أحد، إلا بأنها حكاية بسيطة، ليذوق عبد الواحد أفندى طعام القرية.

وبدأت غشاوة الدمع، تحول بينه وبين رؤية الجمع الذى وقف على رصيف المحطة.

وفى لحظة شعر أن عليه أن يقفز من القطار، خوفا من رحلة إلى مصير مجهول.

.. لولا أن ارتفع صوت يناديه:

حظك فى رجليك يا "سيد".. بص شوف.

.. وكانت جمالات الصبحية، بشفتيها المكتنزتين، تطل من شباك مجاور فى نفس القطار.

وتغيرت مشاعر "السيد" فجأة!

●●●

ـ .. وأنت أيضاً؟

ـ نعم...

ـ مصر؟

ـ قبلها حبة.

ـ فين؟

ـ بنها.. بنها العسل؟

ـ يا شيخة!

ـ أنت تعرفها؟

ـ ولا عمرى سمعت بيها.

ـ افتكرت.

ـ بس مصر.. أم الدنيا.

ـ أعمل فيها إيه؟

ـ تزورى الأولياء.

ـ شئ لله يا أولياء؟

ـ مش أحسن من بنها؟

ـ الواجب.. زيارة.

ـ مين؟

ـ أختى.

ـ أنت دايما تقولى مالكيش حد.

ـ أختى فى الرضاعة.

ـ يا شيخة.. وإيش عرفك؟

ـ أمى.

ـ روحى لها مرة تانية..

ـ دى عيانة..

وسكت "السيد" وبدا عليه التأثر، حين علم أن أختها هذه، فى الرضاعة، تزوجت بائعا جائلا، توفى بعد أن ترك لها ثلاث بنات، ثم سقطت هى بعده مريضة، ولا عائل لها إلا هى.

ـ وتصرفين عليها؟

ـ وأدور فى القرى من أجلها.

ـ ولا تتزوجين من أجلها؟!

ـ نصيبى!

وأمسك بيديها، وهو يقول لها:

ـ أنت عظيمة يا جمالات.

ـ .. يا.. خى!!

ـ والناس لا تعرف سرك.

ـ ولو عرفت؟

ـ كانت تغير رأيها فيك.

ـ وما رأيهم فى؟

ـ إنهم.. كلهم..لا لا!. عيب!

ـ قل.. ضرورى.

ـ أقول.. ولا تغضبين؟

ـ طبعا تقول.

ـ كلهم يشتهونك.

ـ أعلم هذا.. تماماً.

ـ ويسرك منهم هذا؟

ـ يشعرنى أنى أنثى.. مرغوبة!

ـ لكنى.. تصورت..

ـ لأنك عبيط.

ـ هل تتزوجيننى يا جمالات؟

ـ وظروفى؟

ـ علينا نحن الاثنين!

ـ حتتعب معاية..

ـ تعبك راحة.

●●●

ووصل "السيد" إلى حارة صغيرة تائهة فى حى الحسين، حيث يسكن عبد الواحد أفندى، وشفتا جمالات تسيطران عليه.

ولقى عنده حفاوة بالغة، رحب بمقدمه، وبما تحويه القفف من طيبات القرية.

لكن جمالات ظلت معه.

أغضبت منه لأنه صارحها بما يفكر الرجال؟

أبدا، فهى تحب أن يشتهيها الرجال!

وانشغل السيد، بقريبه، فاختزن جمالات فى خياله.

وفى إحدى جولات عبد الواحد أفندى معه، أخذه إلى البساتين!

"مشوار" طويل جدا، حتى الجيزة.

و "مشوار" آخر على الأقدام حتى وزارة الزراعة.

و "مشوار " أطول من "المشوارين" حتى البساتين.

ورأى هناك عجباً. أصنافاً كثيرة من أشجار الفاكهة والزهور، بكل الأحجام والأطوال والألوان.

واستبدت به الرغبة فى المقارنة، فرأى شريطه الرفيع على حافة السكة الحديد، دودة صغيرة من ديدان الأرض!

أو ورقة صفراء ذابلة سقطت فى الخريف!

لكن "السيد" ظل مع ذلك متماسكا، لأن "الطمع يقلل على الإنسان ما قد جمع". هكذا كان يقول له أبوه.

.. وعند شجرة القشطة وقف عبد الواحد أفندى ليقول لقريبه:

هذه شجرة "القشطة".

"قشطة". هل للقشطة شجرة؟

كان هذا سؤال "السيد" لقريبه، وهو فاغر فاه، ومد قريبه يده فقطع منها ثمرة قدمها له. ولما ذاق ثمرتها، وجدها "قشطة".... مسكرة! وطعمها حلو ولذيذ!

ووقف مشدوهاً لا يتحرك.

قال عبد الواحد أفندى:

هيا بنا، وسأحضر لك منها شتلة تزرعها فى بستانك!

وضحك عندما قال عن شريطه الرفيع إنه بستان.

●●●

وعندما عاد "السيد" بالشتلة إلى القرية، لم يكن له حديث إلا عن "القشطة".. شجرة "القشطة"!

وكان قد أخذ كل النصائح اللازمة من قريبه عبد الواحد أفندى، حتى يغرسها فى "البستان" بالطريقة المطلوبة تماماً.

لقد حفظ النصائح عن ظهر قلب، وطبقها بغير اجتهاد، تحرزاً من أى خطأ.

وشاركه فتيان القرية، هذا العمل الخطير.

وجلس "السيد" أمام شجرة القشطة يتعبد!

ستكون أول شجرة "قشطة" فى المركز.. فى المديرية.. سأهدى أول ثمرة للعمدة..

.. لا لا.. بل أهديها "لجمالات الصبحية" !

سأقول لها: إنى أيضاً.. أشتهيك! وأنتظرك!

إنها لن تغضب! هى قالت لى هذا!

●●●

لكن جمالات الصبحية لم تعد إلى القرية، منذ رآها فى القطار.

أين ذهبت؟

هل تكون قد تزوجت؟

.. أبداً! إنها تحب أن يشتهيها كل الرجال!

هى قالت لى هذا، لتشعر بأنها أنثى مرغوبة!! ثم إنها وعدته، فهل تخونه؟

●●●

وعاش السيد وشجرة القشطة جنباً إلى جنب، لا تغفل عيناه عنها أبداً.

ولم يعد له حديث إلا عن شجرة القشطة.

إذا اختلف مع أحد توعده، عندما تكبر شجرة القشطة!

ـ آه.. بكره أهادى منها لمأمور المركز، وشوف بقه.

ـ وحيعمل إيه المأمور؟

ـ بس يدوق القشطة، واللى حقول له عليه حيعمله!

وإذا اتفق مع أحد، أمهله حتى تكبر شجرة القشطة!

ـ آه.. بكره يبقى لى نفوذ عند الحكام، وأخدمك.

ـ حتعمل لى إيه بس؟

ـ بس يدوقوا القشطة، واللى أطلبه يتنفذ على طول!

●●●

.. ولا يزال "السيد" شديد الحفاوة بالنساء، وبعذارى القرية من فتيات. تربى معهن، وشعر بدفء صدورهن وهو طفل يحبو، ثم وهو صبى، ولا يزال هذا الدفء يلهب غرائزه.

●●●

ـ طب ما تتجوزنى يا "سيد".

ـ أما تكبر شجرة القشطة.

ـ وشجرة القشطة ما لها ومال الجواز؟

ـ يوم ما يبقى عندى قشطة، كل البنات تجرى ورايه؟

●●●

لكن شجرة القشطة تتمو نموا بطيئاً.. بطيئا..

إنها بين عينيه، وفى أحيان يشعر أنها تخونه، كما تخونه جمالات. إنها لا تتمو كما يتمنى، وهذه طعنة له، لا يكاد يحتملها!

وتأتيه نسوة جميلات، ضممنه ذات يوم إلى صدورهن، فيقترب منهن، ويحاول أن يمسك بأيديهن، ليتوسل إليهن أن يعدن إلى ضمه إليهن.. مرة أخرى!! مرة واحدة!!

- كنت صغيراً يا سيد!

- وهل ذنبى انى كبرت؟

- أنت الآن رجل.

- وتستطعين أن تعتبرينى طفلا أبحث عن ثدى أقتات منه.

- وأسنانك هذه.

- ماذا عن أسنانى.

- لا تخافى.. أسنانى لا تؤذى.

- هات الفجل، لأعود للرجل قبل العشاء.

- وهاتِ أنت..

- استح يا شقى!

ـ سأحتفظ لك بواحدة من ثمر القطشة.

ـ عيب.. يا سيد.

.. وتمضى عنه، وحزمة فجل طازجة تحت إبطها، وقد بدا عليها غضب.

ويحدث نفسه:

هل صحيح ذهبت غاضبة! جمالات الصبحية قالت لى إن ذلك لا يغضب المرأة.. بل العكس هو الذى يغضبها!

●●●

هذه العذراء، تريد بعض الكرات.

لكن "السيد" يستبقيها، ليروى لها حكايات عن شجرة القشطة، ثم يصحبها إلى الشجرة، لتتحسسها معه، وتباركها له.

وتدور بينهما الأحاديث.

آ..ه لو عادت الأيام إلى الوراء..

ـ لماذا؟

ـ لنعود نتدحرج على الحصير فى قاعة بيتكم.

ـ كنا أطفالا.

- ولم تكونى تبتعدين عنى.

- لم يكن فيك خطر.

- وأى خطر فىّ الآن؟

- الرجل.

- حتى لو حجزت لك أول ثمرة قشطة؟

- وما طعمها؟

- لذيذ.. جداً.

- وهل أكلتها أنت؟

- طبعا، ولا تزال حلاوتها فى فمى.

- يا بختك.

- إذن اتفقنا.

- على إيه؟

- على القشطة.

- تأخرت على أبى.

- .. والقشطة؟

- سبحان العالم.

وتركته وتمضى تتمايل، وحزمة الكرات بين يديها.

●●●

ولم تعد "للسيد" من أحلام، إلا شجرة القشطة.

صارت الدنيا عنده، شجرة قشطة!

صارت المرأة عنده، شجرة قشطة!

صارت القوة عنده، شجرة قشطة!

.. باختصار من غير شجرة قشطة، فلا شئ يساوى شيئا!

وفى يوم من الأيام، تلقى "السيد" خطابا، ولم يكن قد تعلم القراءة أو الكتابة، فسعى إلى أحد رفاق الصبا، من طلبة الأزهر الشريف، ورجاه أن يقرأه له.

وأخذ "السيد" يردد:

لابد أنه من عبد الواحد أفندى. لابد. من لى سواه فى مصر؟

وأخذ الفتى الشيخ يفتح الخطاب، ثم أخذ يطيل النظر إليه، وهو يعجب.

ولما انتهى من قراءة الخطاب قال للسيد:

- تعرف ممن هذا الخطاب؟

- من عبد الواحد أفندى.

- أبدا.. إنه من جمالات الصبحية.

وانتفض "السيد" من مكانه، ووثب واقفاً على قدميه.

- من جمالات الصبحية؟

- آ.. ه منها هى.

- من بلد اسمها.. اسمها.. لا أذكر.

- اذكر على مهلك.

- بلد اسمها.. بنها.. بنها العسل؟

- تمام..

- تسأل عنك، وتخبرك أن أختها توفيت.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. ثم ماذا!؟

- وأنها اضطرت للبقاء فى بنها لتربى البنات.

- عظيمة والله جمالات.

- هل كنت قد حدثتها فى الزواج؟

- نعم.. لكن حديث قطار عابر.

- هى تقول لك إنها مستعدة للزواج، لو وافقت على أن تذهب إلى بنها وتعيش إلى جوارها.

- وشجرة القشطة؟!!

ـ هذا ما جاء فى الخطاب.

ـ أنا لن أفعل شيئا، ولن أفكر فى شئ قبل الشجرة.

ـ تريد أن ترد عليها.

ـ إنها حلوة.. حلوة جدا.. أنا أريدها، لكنى أريد الشجرة أولا. على كل حال فات الكثير وما بقاش إلا القليل.. ننتظر الشجرة.!

●●●

ولم يمض أسبوع إلا وجاءه خطاب آخر.

وحمله إلى صاحبه، وهو يمشى كالطاووس، إن جمالات الصبحية، لم تعد تطيق على بعده صبراً، لابد أنها هى! ماذا فيك يا "سيد" لابد أنك ساحر! حتى جمالات التى استولت على خيال كل رجال الناحية!!

وعندما فتح صاحبه الخطاب كان "السيد" يردد:

لابد أنها جمالات.. جمالات الصبحية!

وعندما فرغ صاحبه من الخطاب نظر إليه طويلا وقال له:

ـ بل الخطاب هذه المرة من عبد الواحد أفندى.

وضحك "السيد" طويلا على نفسه، ثم سأل: وقال له صاحبه:

ـ يسلم عليك ويسأل عنك، ويتمنى لك التوفيق.

ـ ولم يذكر شيئا عن شجرة القشطة.

ـ ذكر بعض الأشياء.

ـ ماذا قال؟

ـ تمنيات طيبة.

●●●

ومضى "السيد" إلى مكانه من شجرة القشطة.

كان يراها عظيمة ورائعة.

كبرت الشجرة، ونمت.

والناس يمرون بها فيتوقفون عندها ليطلوا عليها.

و "السيد" سعيد ومزهو، ويكاد أن يرقص من فرحته.

هذه السنة ستثمر.. ستثمر قشطة.

●●●

وجاء أوان الثمر.

لكن .مر لم يكن "قشطة"!

كان شيئا آخر.

أثمرت شجرة القشطة جميزا!

ووقف "السيد" ينظر إلى الثمر، غير مصدق لما يراه.

وتاهت نظراته بين "العجر" الأخضر وقد شق الأغصان، ليتعلق فوق أعنق قصيرة خضراء.

وعندما تلفت خلفه، وجد أهل القرية قد تجمعوا ينظرون معه "لعجر" الجميز!

وسمع "السيد" من يقول له:

ـ اختته يا سيد، بدل ما يبقى عجر.

وصاح السيد يقول:

ـ هذه.. قشطة..

قالوا له:

ـ بل جميز.. أنت تعرف أنه جميز.

وأخذ السيد يصيح:

ـ جميز.. قشطة!!

ثم يعود يصيح:

ـ قشطة.. جميز!!

ويمضى يصيح.

- جميز.. قشطة.. جميز!! أبدا.. أبدا.. قشطة!!

وأخذ يعدو هارباً من النظرات التى حوله، وأصحابه يعدون وراءه، وصديقه الأزهرى يؤكد له أن عبد الواحد أفندى تنبه إلى خطئه، فأرسل يعتذر فى خطابه، وأنه أشفق عليه، فلم يقل له الحقيقة حتى لا يصدمه.

●●●

وعندما حمله أهل القرية حملا إلى خصه، انكفأ على وجهه، لا يطيق أن يرى الشجرة.

لقد صار هو: الشجرة..

السيد قشطة.. هكذا أطلقت عليه القرية، لتظل القشطة فى البلد.. من غير شجرة!

●●●

ولا يزال الذين يترددون على هذه القرية، يجدون خصا من البوص، فى شريط رفيع أخضر محاذ للسكة الحديد، وقد جلس على بابه "السيد قشطة" منكس الرأس، يتفادى أن يراه الناس.

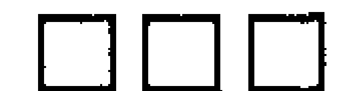
إنه لا يرى أحـدا، ولا يريد أن يرى أحـدا، حتى جـمالات الصبحية.

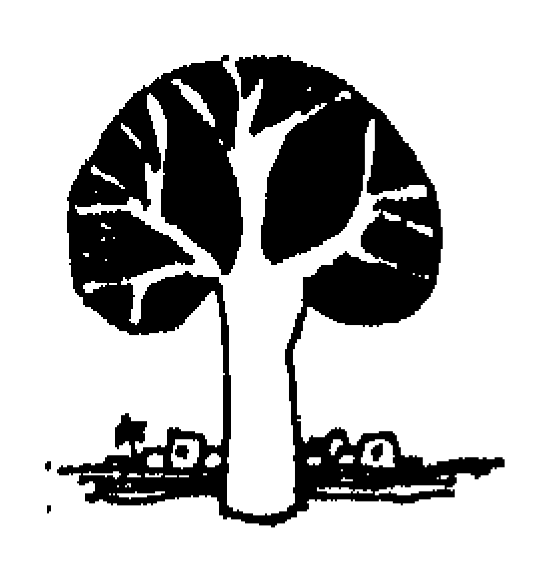
وعندمـا تتقـابل عيناه، بالجميزة الكبيـرة، يردد بينه وبين نفسه:

أنت ماذا؟ قشطة؟ جميزة.. قشطة!

.. وفى أحيان تدمع عيناه من.. النكسة!!!

ثم تجفف الدمع.. وتنتظر!!







صلحتوا التليفون ليه..؟

لم يبق لك يا ولد.. إلا الزوجة!

الدراسة، وقد انتهت والحمد لله، وحصلت على درجة جامعية.

والوظيفة، وقد حصلت عليها، فى يسر وسهولة، ولم تحتج لكثير من الرجاء أو الانتظار، فقد كان زوج خالتك كريما كعادته، فوفر عليك الانتظار، وطرق أبواب المجهول!

والشقة، وقد آلت إليك وحدك، بعد أن تركها لك زوج أختك، بعد أن عثر على وظيفة شهية، فى منظمة دولية!

.. لم تبق بعد ذلك، إلا الزوجة!

لكن أية زوجة تختار؟

●●●

كريمة؟ أم سميرة؟ أم جلفدان؟ أيا منهن تختار؟.

كريمة بنت مثقفة ومستنيرة، ولسانها كالكرباج.. طويل وحاد! لا تعرف التسليم بشئ! وليست عندها قضية مسلما بها! إنها تريد دائما، أن تتمنطق كأنما هى حفيدة ديكارت!؟.

وسميرة بنت حلوة ورقيقة ومستسلمة.. طيبة كالدعوات! مستقيمة كالصراط! صريحة إلى درجة "الهبل"! سرها على طرف لسانها! تصلح زوجة ممتازة، لكن فى الفقر!!

وجلفدان بنت منفوخة ككرة الدورى الممتاز، لكنها منفوخة هواء!! من أسرة عريقة، وأهلها أكابر.. لكنهم جميعا "كور" داخلها هواء فارغ! كل ما يملكونه ماض وذكرى، وألقاب، ورتب ونياشين!!

ومالك أنت يا ولد بهؤلاء؟ بكل هؤلاء؟

الدنيا يا "إدريس" لم تعد ثقافة أو منطقا؟ والناس يا ولد، لم يعودوا، يشترون حاجاتهم بالثقافة أو بالمنطق! والسيارة الشيفرولية تسير بالبنزين، لا بالثقافة ولا بالمنطق!

آه لو أن لسميرة ميراثا.. إذن لكانت قد جمعت الجمال والمال، ولصارت الحياة معها نعيما.

وماذا تفعل يا "إدريس" بجلفدان؟

تعيش معها على ألقاب، عفى عليها الزمان؟

تتفاخران بالماضى، وقد ولى ومات؟

والأصل العريق.. أين رصيده فى حسابات البنوك؟

وماذا يجدينا لو أنجبنا أولادا؟ أفيكفى أن يكون جدودهم لأمهم، قوادا ذوى شوارب، وعلى سحنهم سيماء من كبرياء.. جوفاء؟ وهل تكفى هذه الكبرياء، لدفع مصروفات الدروس الخصوصية، وتكاليف المصايف والمشاتى، والرحيل الى أوربا للاستمتاع بمباهج الدنيا؟

●●●

ـ وماذا تريد يا إدريس؟

ـ أريد زوجة لا ترهقنى بمطالبها؟

ـ موظفة مثلا؟

ـ لتضيف دخلك إلى دخلها.

ـ .. وتجرى وراء الترقيات والعلاوات، وتحترق أعصابها فى منافسة الزملاء والزميلات؟

ـ وتذوقان معا لذة كفاح نادر.

ـ شبعنا كفاحا.. أفنعيش ونموت.. فى كفاح؟

- ماذا تريد إذن؟

- زوجة غنية.. غنية.

- وتتطاول عليك؟

- عقدا.. هذه عقد رسبها فى نفوسنا الفقر!

- ولماذا ترضى بك واحدة غنية وأنت فقير؟

- ولم لا، وماذا ينقصنى؟

●●●

... وأخذ "إدريس" يعيش فى أحلام الغنى والثروة، مع زوجة طريقها مفروش بالذهب!.

ومع ذلك فلم يكن لدى "إدريس" مانع من أن يقضى أوقاتا طيبة، مع كريمة مرة، أو سميرة مرة، أو جلفدان مرة ثالثة!

وكان يشعر مع كريمة، أنه إنسان تافه!!

أما مع سميرة، فقد كان يشعر بشخصيته، وهى تسلم بكل ما يقول وتوافقه على كل رأى، وتبدو أمامه قطة صغيرة، تبحث عن دفء تلوذ إليه!

.. جلفدان كانت على عكس سميرة، تطلب منه دائما، أن يسير إلى وراء، يتبعها كأنه واحد من رعاياها! حتى أحاديث

الهوى، تلقيها على مسامعه، كأنما هى أوامر لا تقبل جدلا!
وعليه إذا أراد أن يتغزل فى مفاتنها - ويجب أن يفعل! - ألا يخاطبها، إلا بصيغة الجماعة، أو يعقب غزله بنداءات الفخامة التقليدية.. "أفندم"!

●●●

وفى ليلة كان "إدريس" وحده فى شقته الفاخرة بجاردن سيتى.

وسمع تليفونه يئز أزيزا خافتا متقطعا، بلا رنين وأمسك بسماعة التليفون، فسمع عجبا!

الخط مفتوح عليه، بينما مكالمة تجرى بين صوتين من أصوات الملائكة!

ومضى إدريس يتصنت!

ومع الحديث زاد فضوله، فأخذ يسمع حديثا واضحا، فكتم أنفاسه حتى لايثير انتباه المتحدثين.

●●●

- .. لم تحضرى العشاء أمس.

- لم أستطع والله يا تانت.

ـ لماذا ياحبيبة تانت؟

ـ السيارة كانت فى التشحيم، ولم يأت السائق إلا بعد العشاء ولم أرد أن أحضر متأخرة.

ـ أليس البيت بيتك؟

ـ طبعا بيتى.. لكن عيب أحضر متأخرة.

ـ فى المرة القادمة..

ـ سأقود سيارتى الصغيرة ياتانت.

●●●

آه !! سيارة فى التشحيم، ولها سائق!

وسيارة صغيرة تقودها بنفسها!

والله رزقك فى رجليك يا إدريس!!

.. وتردد إدريس. هل يتدخل فى المناقشة؟ هل يدعى أى ادعاء، ليعرف رقم تليفون صاحبة السيارتين؟ لكنك ولد شاطر وذكى يا إدريس ومثل هذا التصرف قد لا ينفع! قد تنهيان المكالمة، دون أن تصل إلى شئ!

وتذكر "إدريس" الشكوى من التليفونات هذه الأيام، وأن الخطوط المتداخلة، تظل هكذا "سايبة"، لمدد تطول، وأن مثل

هذه المكالمة ستتكرر بلا جدال. المهم أن يرابط هو، فى أمسيات كل يوم ليتابع هذا الأزير الخافت، لينصت إلى أية مكالمة مفتوحة عليه، ليحدد من خلال ما يسمع هذه الفتاة، صاحبة السيارتين.

ـ سيارتان تعنيان ثروة للإنفاق عليهما.

ـ والسائق هذه الأيام يتقاضى مرتبا كمرتبه.

ـ والذى يستطيع أن يكون عنده سائق، لابد أن يكون عنده طباخ وسفرجى وجناينى.

ـ وجناينى بلا جنينة غير معقول.

ـ ومرتبات هؤلاء تصبح كمرتبه ومرتب زوج خالته ومرتب زوج أخته مجتمعين!

ـ .. يعنى باضت لك فى القفص يا إدريس!!

●●●

.. ولم ينم إدريس ليلته.

وفى اليوم التالى، اتصلت به سميرة لتسأل عنه، فأنكر نفسه! لم يكن يريد أن ينشغل بشئ أبدا، عن التليفون، وعن أزيزه الخافت الهامس المتقطع!!

وصارت أمنية إدريس الكبرى، أن يظل التليفون مخروبا، وأن تظل كل تليفونات البلد مخروبة، حتى تتداخل الخطوط، وحتى يسمع مناقشات تانت هذه، مع الملاك الصغير، صاحبة السيارتين!

وأز التليفون أزيزه الخافت المريض! فأمسك بالسماعة، وصار كيانه كله فى أذنيه!

●●●

وسمعها..

- عيوشة ياحبيبتى.. أين كنت طول النهار.

- كنت فى العزبة طول النهار يا تانت.

- ليه يابنتى؟

- المزاد السنوى لبيع المانجة ياتانت.

- يا..ه؟ دى الأيام بتلف.

- والحقيقة كنت عاوزه أخدم الريس مرجان.. طول عمره بيشترى المانجة وبيسترزق منها. السنة دى المجلس الحسبى قال لازم مزاد، وأدى إحنا عملنا المزاد ورسيناه عليه. مش معقول عشان بابا مات، الراجل يتبهدل.

- ورسى عليه إزاى؟

- دفعت له أنا الفرق عشان يزود على التانيين.

- بس يكونوا ضحكوا عليك.

- أبدا يا تانت. يعنى ربعمائة جنيه مش حاجة!

- وماختيش معاكى واحد من رجالة العيلة ليه؟

- يا تانت كل واحد منهم مشغول.

●●●

وأخذ إدريس يرقص من الفرحة.

أولا: أبوها مات! وهذا يعنى أنها وارثة جاهزة!

ثانيا: عندها عزبة قضت فيها طول النهار!

ثالثا: العزبة مزروعة مانجو، وهذا شئ هائل!

رابعا: تدفع المغفلة أربعمائة جنيه من جيبها من أجل الريس مرجان! ليسترزق!! لماذا؟ ومالك أنت والمعلم مرجان؟ وهل أنت مسئولة عن المعلم مرجان؟! يجوع المعلم مرجان أو لا يجوع.. ما شأنك أنت يا "عبيطة"؟ والله لن يتكرر هذا "البقشيش" بعد ذلك أبدا!! بس اصبرى، عندما أعرف من أنت، وعندما تصبحين من نصيبى! أربعمائة جنيه!! ليه؟!

إن مـرتبى طوال العـام، يصل بـالكاد إلى هـذا المبلغ، وينقص عنه بعد خصم الضرائب!!

●●●

وأخذ إدريس يحلم: بالعزبة، وشجـر المانجو، والسيارتين، والثروة.

ثم لابد انهـا وحيدة.. الوارثة الوحيدة! وإلا مـا ذهبت هى إلى العزبة، لتنفيذ قرار المجلس الحسبى!!

لكن ما شأن المجلس الحسبى؟

هل هـى قاصر، ولا تزال تحت الوصاية؟

أم أن لها شركاء قصر، وهى الوصية عليهم؟!

ودارت رأس إدريس، وهـو يفكـر فـى كل هـذه الأمـــــور الغامضة المتداخلة.

وقال لنفسه:

لابد أن أعـرف من هـى، وعندمـا أعرف، فسـأضع خطة جهنمية للسيطرة على عواطفها بحيث تصبح كالعجينة بين أصابعى.

سأجعلها تحبنى.

سأطير النوم من بين جفونها.

سألهب عواطفها، حتى أصبح أنا، وأنا وحدى، فتى أحلامها.

وسأل إدريس نفسه: لكن كيف؟

●●●

وبدأ إدريس يرتب حملة متقنة، من حرب نفسية، يشنها عليها.

.. بالحب! بإثارة عواطفها بالحب! بإيقاظ هذا الوحش الكامن فى قلب كل أنثى.. بالحب! لا شئ أفعل فى قلب امرأة من.. الحب!

إذن... فيجب أن يحبها!

يجب أن يحاصرها.. بالحب!

إذا أفلتت هذه الفاتنة، فإن آماله كلها ستنهار!

..وبدأ "أدريس" يحب!! نعم.. لابد من أن يحب!!

وعليه أن يسجل هذا الحب، فى خطابات من نار، لتنصهر كل سدود الثلج، من لهيب العاطفة.

يجب أن يكتب لها خطابات عاطفية رائعة، استعدادا لليوم الذى يعرف فيه من هى. وعندئذ سيرسل لها هذه

الخطابات. بالطريقة المناسبة. وسيرسل مع كل خطاب باقة ورد أحمر، ليزيد اشتعال الحب فى قلبها.

لكن ماذا تكتب يا إدريس؟

●●●

عيوشة...؟

.. لكن ما هذا الاسم "البايخ"؟ عزبة، وشجر مانجو، وأربعمائة جنيه تدفعها للمعلم مرجان، وسيارتان.. وخدم وحشم، ومجلس حسبى ومزاد يقام كل عام... ثم لا يعجبك الاسم يا "مفترى"!!

وسخر من نفسه، وعاد إلى أوراقه.

عيوشتى.. ومناى:

يا خفقة فى قلبى، لم تنقطع!

يا صيحة فى دمى، لم تجف!

ياحبا أقوى من الحب!

يا دنيا من النجوى والعذاب!

يا حلم عمرى، وأمل يومى.. وغدى!

.. فى اليقظة، أراك أمامى، تؤنسين وحشتى، وفى المنام، أراك معى، تملئين حياتى.. بالمنى!

لقد صرت معنى فى وجودى، ودمعة فى مقلتى.

صرت أحلى نداء يردده لسانى، وأمتع أغنية يتغنى بها قلبى.

.. وألقاك ياحبى الوحيد الحانى، فأشعر أن الدنيا كلها بين يدى، وأخاف حين ألقاك أن أعجز عن التعبير لك عن مدى ما أكنه لك من حب عميق وأخاذ!

●●●

ويمضى إدريس يكتب...

وينفعل إدريس بما يكتب، حتى ليصل به الانفعال إلى أن تدمع عيناه، من فرط التأثر بالحب الجارف الذى ملأ حياته بأحلام لا يستطيع أن يقاومها.

وعندئذ يؤثر أن يسجل هذه الدموع فى خطاب إليها.

الدمع ياحبيبتى ابتهالات منى.

يا أرق من حملته أرض.

يا أشهى من رأته عين.

يا أخت روحى، حين تحتاج الروح إلى قرين.

ويئز صوت التليفون، أزيزه الخافت الضعيف، فيسرع إدريس بالتعلق بالسماعة.

ويصله صوتها.. عذبا رقيقا وطيبا.

ـ مين؟ عيشة!.

ـ أيوه أنا عيشة. إزيك يامنى؟

ـ .. وعرفت صوتى؟!

ـ عشرة.. عشرة طويلة.

ـ سألت على؟

ـ وأنا أستغنى؟

ـ خير.. أ ! تحت أمرك.

ـ عاوزه أحجزك الجمعة الجاية.

ـ ليه. فيه إيه الجمعة الجاية؟

ـ مناسبة صغيرة.. بس نفسى يحضرها كل أصحابى.

ـ خطوبة..؟

ـ يا شيخة حرام عليك.

ـ ليه لأ.. دا أنت قمر.

ـ دا بابا مافاتش عليه سنة.

ـ وماله يا حبيبتى.

ـ لا والله لا خطوبة ولا حاجة.

ـ يبقى عيد ميلاد.

ـ ولا عيد ميلاد.

ـ أمال حيبقى إيه؟

ـ سكينة أختى الصغيرة نجحت عاوزه أفرحها.

ـ طب عال.. عقبال كل سنة.

●●●

وأخذ إدريس يفكر. ويستكمل الصورة.

إنها جميلة كالقمر ولها أخت صغيرة إذن، وقد نجحت فى الامتحان وتريد أن تحتفل بنجاحها! ما أطيب قلبها! إنها تريد أن تبدد أحزان الصغيرة، خاصة بعد وفاة أبيها!

آه.. ثم إن أباها قد مات، ولم يمض على وفاته عام!!

أهم من هذا كله، لا خطوبة.. ولا خطيب!!

كل شئ يا ولد يسير فى طريقه تماما..

عليك باستكمال أسلحة الحصار... بالحب.. بخطابات حب، وباقات ورد أحمر، وهوى مشبوب!

ولم يغادر إدريس بيته، فإن الأيام القادمة ستكون حاسمة، وهى تعد لحفل بمناسبة نجاح أختها الصغيرة.

لكن أكان من الضرورى أن يكون لها أخت؟

أفما كان من الأفضل أن تكون وحيدة، ليكون زواجنا لنا.. وحدنا.

ونسى إدريس أن يقول لنفسه:

وليكون كذلك الميراث خالصا.. لنا وحدنا..

●●●

والتصقت أذنا إدريس بسماعة التليفون.

تئز أو لا تئز.. لا يهتم! أهم ما يجب عليه أن يفعله، أن تكون أذناه، فوق سماعة التليفون دائما حتى لايفوته شئ.

لم يبق أمامه الآن، إلا أن يعرف من هى على وجه التحديد! وقد يكفيه أن يعرف عنوانها، ليبدأ حصاره لها.. وليبدأ استعمال أسلحته، ليدير رأسها بالحب!

حزينة على أبيها ليكن.. إنها فرصة يخترق بها هذا الحزن إلى قلبها!

إن الحزن ضعف، والحب مرض والمرض يدخل قلب المحزون، أسرع مما يدخل قلبا لم يطرقه حزن بعد!

واطمأن إدريس إلى استنتاجه واستمرت أذناه ملتصقتين بسماعة التليفون.

●●●

وجاء الفرج، عندما اقترب موعد الحفلة.

الأزيز الخافت، ناداه ليسمع.

وكانت عائشة تتحدث إلى محل زهور، توصيه بأن يرسل زهور الموسم، لتنثرها على موائد حفل الصغيرة بمناسبة نجاحها.

وما إن انتهت من حديثها مع محل الزهور، حتى بدأت تتصل بمحل للحلوى.

وأوصت عائشة بالأصناف التى تريدها.

وسألها البائع عن العنوان الذى يرسل الطلب إليه، فبدأت تقول له:

جادرن سيتى.

وجن إدريس، وهو يتصور أنها تسكن نفس الحى، ومن يدرى، قد تكون جارته.

وأخذ قلبه يخفق بسرعة، وهو ينتظر اسم الشارع، ورقم المنزل.

وفجأة قطع المكالمة صوت غريب.

كان مهندس صيانة التليفونات يسأل:

التليفون كويس؟!

قالت عائشة:

أبدا.. دايما مشبوك مع خطوط ثانية.

قال مهندس الصيانة:

طب إحنا صلحناه خلاص يا أفندم.. مش حيشبك بعد كده على خط تانى.. أبدا!.

.. وانقطع الصوت، وماتت السماعة على أذنى إدريس!!

وجن جنون الفتى، وهو يصيح:

ليه؟. ليه تصلحوه؟ ليه تصلحوا التليفون؟ حد اشتكى!

وظل إدريس يصيح طول الليل وقد فقد صوابه!

.. وظل يصيح عندما طلع عليه النهار:

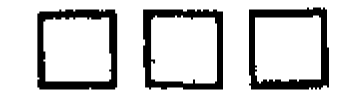
ليه تصلحوا التليفون؟.. ليه؟ ليه؟

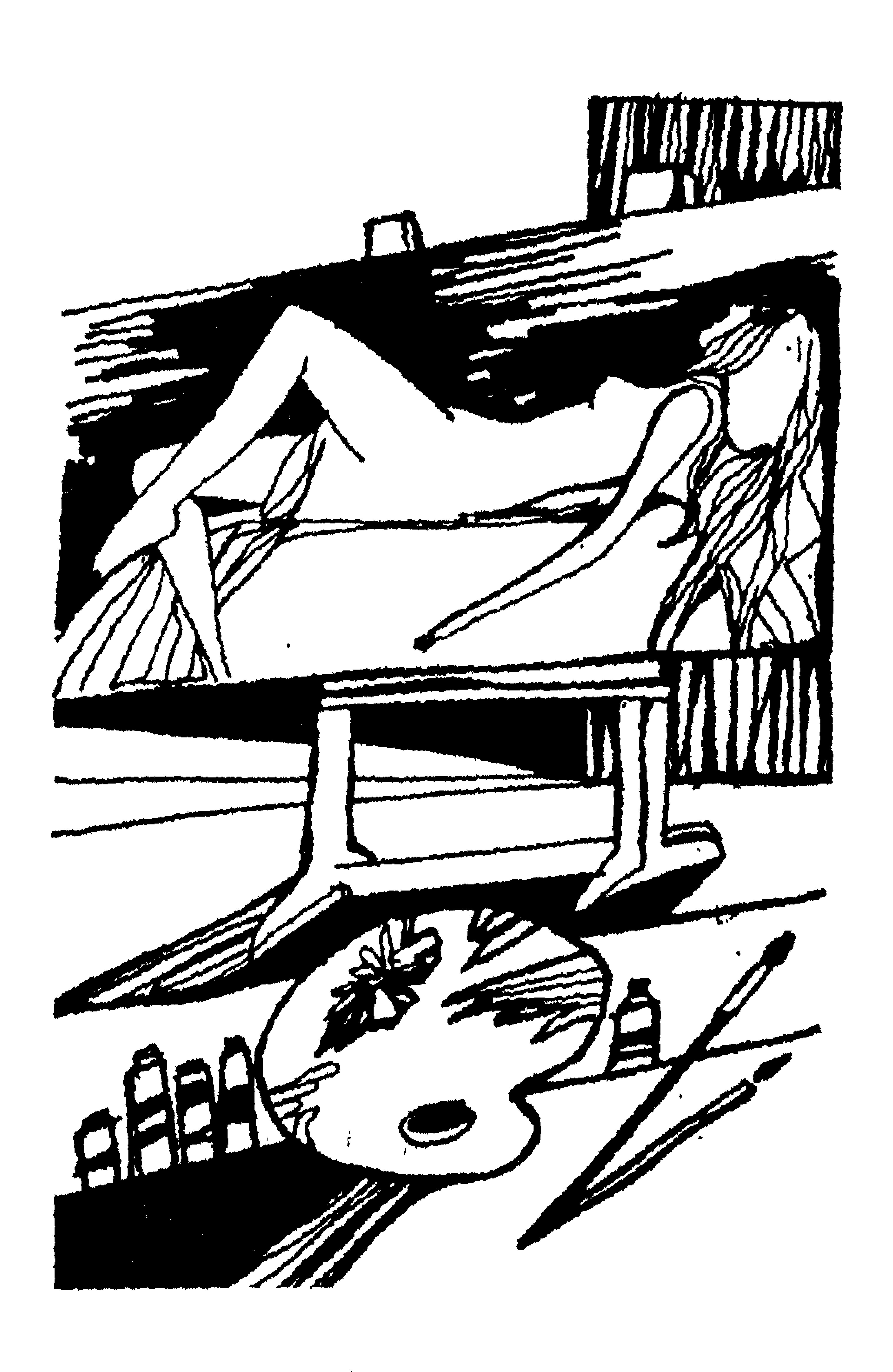
وعندما ذهب إلى مكتبه أخذ يصيح فى كل من قابله:

ليه صلحتوا التليفون؟!

●●●

وذهل زملاء إدريس، وهم لا يفهمون ماذا كانت تعنى صيحاته!!





زواج

ـ هذه الجلسات الطويلة.. ترهقنى!

ـ ثمن الخلود.. فادح!

ـ ومن قال إنى أريده؟

ـ الخلود ليس بالاختيار!

ـ بالمصادفة؟

ـ أحيانا!

ـ وربما بالقهر!

ـ تثرثرين كثيرا جدا.. أريدك صامتة.

ـ لتظهر الصورة صماء!

ـ ليتم للخلود معناه.

ـ لا أفهم.

ـ اسمعى:

... وبدأ الرسام يشرح. ترك أدواته، وابتعد عن اللوحة، ووضع يديه فى جيوب معطفه الأبيض وأخذ يشرح.

بينما كانت "أمانى" مسترخية، تتمدد على "كنبة" خضراء، فى لون السندس، وشعرها أسود فاحم منثور فوق كتفيها، وقد امتدت رقبتها، بين الشعر المنثور كعمود رفيع من عاج!

وكان جو الاستديو هادئا رقيقا، يثير الخيال.

"وإسماعيل" فى معطفه الأبيض وعوده المشوق الفارع، يبدو.. كالملائكة!

وتذكر "إسماعيل" اللحظة التى التقى فيها "بأمانى"

كان يقيم معرضا لأعماله.

وكان جمع كثيف قد حضر فى يوم الافتتاح.

وكانت زهور كثيرة قد تناثرت فى أرجاء المكان.

.. لكنه استطاع أن يلمح زهرة بين الزهرات، لم يستطع أن يرفع عنها عينيه.

هذه الزهرة، تبتسم فى هدوء!

هذه الزهرة تطل على الدنيا، بعينين ساحرتين!

هذه الزهرة تتأمل اللوحات، فى نشوة صامتة!

.. وترك الجمع الكثيف، ليقف معها، ويدور بينهما حوار:

ـ هل المعرض.. أعجبك؟

ـ ألوانه دقيقة ومعبرة!

ـ وتكويناته؟

ـ لا أفهم فى التكوين!

ـ ومعانيه؟

ـ ولا المعانى تهمنى!

ـ هل أنت.. موسيقية؟

ـ أبدا.. أسمع أغانى الشباب.

ـ بكل ما فيها من صخب؟

ـ أشعر أنها.. ألوان تتداخل فى براعة... كلوحاتك!.. ولم يستطع "إسماعيل" أن يمضى معها فى حوار، كانت عيناها قد اخترقت قلبه، فأصيب بخدر!

ولاحظت هى انفعاله بها فضحكت ضحكة صاخبة!.. لكنها عادت تقول له:

ـ سأزورك فى.. محرابك.

ـ تريدين العنوان؟

ـ إنه هنا.. فى الكتالوج! حتى الكتالوج.. نسيت ما فيه؟

ولم يرد! لم يكن يستطيع أن يرد! لقد سلبته "أمانى" إرادته فصار كالمريض تحت "البنج"!

وعاد "إسماعيل" يشرح..

إن الكلام تعبير. والتعبير يأتى من العقل. والعقل يتطور بتطور السن والتجربة، أى أنه يتغير! أما الخلود يا صغيرتى، فهو يتميز بالثبات!. الخلود فى الفن ينتزع لحظة متميزة، ويثبتها للأجيال، وبقدر ما تكون اللحظة مشحونة بالمعانى الإنسانية، بقدر ما يكتب لها الخلود، والفنان حين يحسن اختيار اللحظة، وما يكون فيها من قيم، يكون قد وصل إلى الاختيار الأفضل، والأجدر بالبقاء والخلود.

قالت "أمانى" مقاطعة:

كلام فارغ.. أولا: التعبير يأتى من العقل والعاطفة معا.. وقد يكون التعبير عن النزوة، أجمل من التعبير عن الفكرة!

قال "إسماعيل" بسرعة:

إنك تعطيننى سببا آخر لاستبعاد الكلام، ليكون الخلود لمعنى من المعانى الثابتة، غير القابلة للتأويل والتفسير.. والاجتهاد.

قالت "أمانى" محتدة:

بهذا يصبح الخلود فى نظركم أيها الفنانون، كيانا جامدا وبليدا!.

قال "إسماعيل" وهو يضحك:

ـ هل الحب فى حقيقته يتغير من جيل إلى جيل؟ هل حب قيس لليلى، مختلف عن حب روميو وجولييت؟

ـ طبعا هناك خلاف.

ـ فيم يكون الخلاف؟

ـ فى التصرفات.. فى البيئة.

ـ أسأل عن حقيقة الحب. عن العنصر الأصيل الكامن فى النفس. عن العوامل التى حركت قلب المجنون فسار فى الآفاق يردد الشعر، ويروى همه للصحراء وللظباء، لكل سار فى جنح اليل. هل هذه العوامل تختلف عن العوامل التى حركت قلب روميو، فصار يتحدى ظروف البيئة وأحكام التقاليد؟

ـ فى المعنى.. لا خلاف.

ـ أو فى الحقيقة. لا خلاف.

ـ وممّ يأتى الخلود؟

ـ من لحظة ثبات لا تهتز. تتكرر فى كل بيئة وفى كل جيل.

ـ وكيف يكتشفها الفنان؟

ـ من صدقه. من حسه. من إلهام خفى لا يشعر به الآخرون.

ـ وهل وجدت هذه اللحظة عندى؟

ـ وجدتها..

ـ أين.. أين وجدتها؟

ـ لا تثرثرى.. حتى لا تضيع اللحظة.

ومضى "إسماعيل"..

واسترخت "أمانى" على الكنبة الخضراء، وتهدل شعرها الأسود على كتفيها، وظل العمود من العاج، يتوسط هذا التشكيل البارع.

وكان "إسماعيل" قد اعتاد، على أن يسجل خواطره، عن كل جلسة من جلسات "أمانى" فى ورقة صغيرة.

وفى هذه الجلسة سجل لها العبارات الآتية:

"النظرة كانت مسحة تصوف، عميقة.. عميقة.. تحمل المخطئ على التوبة!

"والجلسة كانت بيتا من شعر، يروى للدنيا سحر الألفاظ، وقدرة تعبير مرهف، على أن يستوعب روح الحب، لكل الدنيا."

.. وابتسمت "أمانى"، وهى تطوى الورقة فى حقيبة يدها، وتنصرف.. إلى موعد آخر.

وكانت "لأمانى"دنياها الخاصة.

كانت مغرمة باللحن الصاخب، وبالرقص، وبمجموعات شباب لا يعرف إلا المرح المجنون !

وكانت "لأمانى" أيضا مغامرات.

.. وفى أحيان نزقة!

وكانت تربطها "بمجدى" علاقات مرحة وفى أحد منتديات الليل، فتحت حقيبتها، ليرى "مجدى" حصيلة جلستها مع فنان، قرر تخليد مكان كشف حقيقتها.

ورأى "مجدى" الورقة وتبسم:

وتطورت البسمة إلى ضحكة.. ثم كان حديث:

ـ الفنان وقع.

ـ لشوشته.

- لكن الجلسات تطول!

- .. أتغار؟!

- لا أضمن!

- ماذا..؟ ماذا تعنى؟

- ألم يتقرب منك؟

- على قدر احتياجات الفن.

- وما الوضع الأفضل، لتسجيل الصورة؟

- ستراها فور تتم.

- ألم...؟

- أبدا!!

- أملاك؟

- إن له غايات أخرى!

- لا يقنعنى هذا القول.

- لأنك شرير، ونزق..

- ولأنك شيطانة.

- أتعرف.. سأعترف الآن.

- .. بوضوح وصراحة.

ـ فى أحيان أغضب منه ومن نفسى.

ـ ولماذا؟ قولى واعترفى.

ـ لأنه لا يقربنى! أكاد أن أنسى أنى أنثى!

ـ كذب. هذا كذب مقصود.

ـ بل حقيقة ما يجرى.

ـ إذن فأنت تودين غوايته.

ـ الأنثى تتمنى أن يتغزل فيها الناس.

ـ وتعطيهم ما يتمنون؟

ـ لا تعطى المرأة إلا إن رغبت.

ـ فماذا ترجو من غزل الناس؟

ـ أن تشعر بأنوثتها.. قلت.

ـ وتعذبهم بالرفض؟

ـ ترضى عما فيها من إغراء!

وثار"مجدى"، وهو لا يصدق، وثارت "أمانى" لأن "مجدى" إنسان طائش. وعنيد، ويقيس الناس بمقياسه.

وانتهت الجلسة برقصة، قطعت هذا الحوار بينهما.

وأخذ "مجدى" يهمس فى أذنها بعبارات الحب، وبأنه لا يطيق أن يسمع أن سواه.. يتمناها!

وفى الموعد.. جاءت "أمانى" إلى الاستديو.

ووجدت "إسماعيل" فى معطفه الأبيض ينتظرها على أحر من الجمر.

قال لها:

لعلك اليوم أحسن حالا.

ومضى أمامها إلى الكنبة، ليعد لها الجلسة، حتى يستمر المنظر هو نفس المنظر، بغير خلاف.

ثم مضى إلى النوافذ يرتبها، حتى لا يتسرب إلى الاستديو إلا قدر من نور، لا يزيد عن الحد ولا ينقص!

إن النور جزء من عمل الفنان، يحدد مقدار الضوء، ومقدار الظل، ليناسب حجم الوجه، ولون البشرة، وتناسق أجزاء الجسم، والشعر المنثور.

وللشعر الأسود ضوء، وللأحمر ضوء آخر، وللشعر الذهبى ضوء ثالث.

وكالضوء، الألوان، وكالألوان، تنسيق أثاث الحجرة.

ومضى "إسماعيل" إلى ألوانه وفرشاته، وهو يتأمل ملامح وجه "أمانى" وقسماته، ويلاحظ الوضع المطلوب.

ورآها تبتسم له.

لكن الفنان فى نفسه، كان يلح عليه أن يبدأ عمله.

ومضى "إسماعيل" إلى اللوحة، فكشف غطاء أسود.

قالت "أمانى":

ـ ولماذا تخفيها؟

ـ لأصون معالمها.

ـ ممن؟ أمن الجو؟ أمن النور؟

ـ لأراها متجددة.. أبدا.

ـ لتزداد بها إعجابا؟

ـ وليزداد إليها شوقى.

ـ .. إلى الصورة؟

ـ ماذا تعنين؟

ـ أو لا تفهم؟

ـ لا تفسدى جو الإبداع.

ـ إنى معجبة بك.

ـ ... ما هذا كله؟ دعوة أمى؟!

ـ أفكانت أمك تدعو أن تلقانى؟

ـ كانت تدعو أن يرزقنى الله بملاك طاهر.

ـ وهل رزقك؟

ـ حتى الآن.. لا أدرى!

ـ تقتلنى بفنك هذا.

ـ وهل الفن سلاح يقتل!

ـ وتجاهل خلق الله؟!

ـ إنى أنصرف إلى تخليد جمالك.

ـ .. وأنا؟

ـ ألست إطاراً يحوى هذا كله.

ـ لكنى إنسانة.

ـ وأنا.. ألست بإنسان؟

ـ إنسانك يتخفى خلف الفنان.

ـ لكن لا يلغيه!

ـ .. هذا رائع.. رائع «قل». أكمل.

ـ الفنان يعيش قصة حب، مع كل جمال يلقاه.

ـ وبعد نهاية عمله.. ينساه؟

ـ إنك تصطادين فى بحر واسع.

ـ بل إنى أتمنى أن نتعامل كبشر.

ـ أفهذى.. دعوة؟

ـ .. أ..و.. ه! إنك تتغابى.

ـ مرة أخرى.. كفى ثرثرة أفضل.

●●●

ومضى الفنان يرسم.

لكن عيون "أمانى" كانت داخل قلبه. نظرات كالنصل غاصت فى أعماقه، والشعر تناثر يروى ظمأ أخرس.

وتقدم منها، بغير تردد.

وأمسك بيديها، فوثبت نحوه.

قال "إسماعيل" وهو يترنح:

إن الفنان حين يحب، لا يعرف فى حبه غير التوحيد.

ـ وماذا ترجو المرأة من رجل غير الصدق؟

ـ وتصدق معه.. بنفس الدرجة؟

ـ طبعا.. أفهذا شئ مشكوك فيه. المرأة أصدق.

وهز "إسماعيل" رأسه، وهو ينصرف إلى عمله.

وفى الورقة التى اعتاد أن يسجل عليها انفعالاته، كتب لها يقول:

"إن الحب، قد يصدر فى كل اللحظات. الفنان يحب الصدق. يحب النزوة. يحب الناس. يحب الحب.

"لكن قرار الاستقرار على حب هو أخطر ما يتخذ الفنان، فقد يرديه، وقد يعليه! قد يجعل منه شعاعا لكل الأجيال من بعده. وقد يتجرد بقراره من كل صفات الفنان، فيفقد ما يملك.. وقد يفقد نفسه!

" ياحبا لا يهدأ، إلا ليثور!

" يا فتنة كل العشاق!

" يا قطعة سكر.. أو علقم! "

●●●

وكعادة "أمانى"، فتحت حقيبتها، ليرى "مجدى" آخر صيحات الفنان، وهو يرسم صاحبته.

وصاح "مجدى":

إنى لا أقبل! لا يمكن أن أقبل!

وكان حوار.. كسعار النار:

- أنت بالقطع تخوننى معه!

- إنى بالقطع أستفزه.

ـ وقد نجحت محاولاتك معه!

ـ ليتها نجحت!

ـ وماذا تريدين منه!

ـ أريد أن أختبر تأثيرى عليه.

ـ ثم.. ماذا بعدها؟

ـ لا شئ.

ومضيا إلى رقص عاصف، وشراب، ونزق.

●●●

وفى الموعد ذهبت "أمانى" إلى الاستديو، لتجد إسماعيل فى انتظارها.

لم يكن قد استطاع أن ينام منذ تركته آخر مرة.

لقد ألهبت الشقية مشاعره، فلم يعد يطيق صبرا.

وأراد أن يحسم الموقف.

هل ينتهى من صورتها على وجه السرعة، لينتهى الأمر؟

أم أن الموقف لن يحسم، إلا بشئ آخر؟

ثم كيف تكون مشاعر فنان، يحول فنه إلى صنعة؟ إنه محتاج إلى قدر كبير من المشاعر، ليعطى للصورة أجمل ما تحتاج إليه.

إن الفنان يحب العمل حين يؤديه، وبغير الحب يتحول عمله إلى إنتاج ماسخ، وتضيع كل جهود بذلت.

فى نفس الوقت، فإن هناك رجلا فى الفنان، يلح عليه، ليلبى رغباته.

وبين الرغبة، والتجريد، أخذ يحدث نفسه.

هل تنطفئ الشعلة، حين يحقق رغباته؟!

لم يك يدرى!!

شئ واحد كان يصر عليه، أن يعرف ماذا تنوى أن تفعل!

قالت "أمانى":

- .. أنت.. أتريدنى؟

- .. وأنت؟

- إنى لم أجرب بعد، كيف يكون تعامل أنثى مع فنان مثلك!!

- أتظنين الفنان شيئا مختلفا عن سائر خلق الله؟

- لا أعرف عنهم، إلا ما تفعله أنت معى.

- الفنان يحب.. ويتزوج.

- ويختار شريكته من ملكات الفن؟

- إن حياة مشروطة، تفقد قيمتها!

- وفى حالتنا .. ماذا تنوى؟

- أنفذ لك، ما تنوين من الرغبة.

- فإن اخترتك زوجا؟

- أحيا فى الجنة!

- هذا .. أملى.

●●●

وبدأ "إسماعيل" يعيش بأمل.

عرف البسمة، والضحكة، ورجاء المستقبل.

واستكثر أن يصبح هذا الكنز الرائع كله، من ممتلكاته، فأخذ يغنى.. يغنى فى الحمام، وفى المطبخ، وأمام اللوحات.

وأتم اللوحة، فى أروع صورة، وتطلع لليوم، حين تصير اللوحة جزءا من معروضات اللوفر! سيخلد اسمه بين مشاهير الفن!

وشعر الفنان، أن لم يبق عليه إلا أن يتزوج.

ودعا بعضا من أهل الفن ونقاده، ليروا اللوحة، ويحتفلوا بزواج ملهمة الفن للفنان.

وفى الموعد، حضر الناس، والمأذون..

.. وغابت ملهمة الفنان وعروسه!

وعـرف الفنان، أن "أمـانى" ذهبت مع "مـجـدى" لحـفـلة رقص صـاخبة، لا يتوقف فيها الرقص، أو الشـرب، أو النزق المجنون!

وهمس الفنانون فى أذنه، بما يتردد عن صاحبته:

وحين تأكد، طوى اللوحة وسار بها فى ظلمات الاستديو.

●●●

أتمزقها؟

لكن ماذنب اللوحة؟

اللوحـة لحظة من عـمـر الإنسـان.. واللحظة خـالدة لا تتبدل!

اللحظة ليست خائنة يا "إسماعيل" ولا هى نزقه!

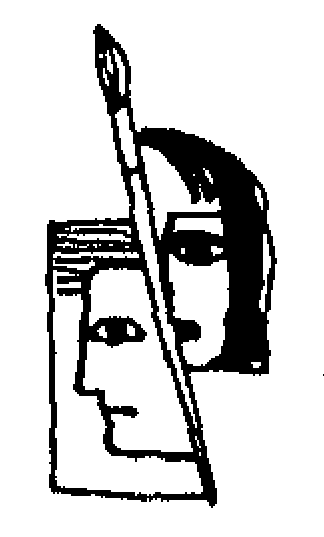
اللحظة شحنة، والشحنة نور للأجيال فلا تطفئها!

إن اللوحة أنت؟

.. وتمزقها؟! تمزق نفسك!

●●●

وعاد "إسماعيل" إلى أصدقائه ليحتفل باللوحة!





مبروكـــة

شـاطئ الإسكندرية فى الصـيف، يفـقـد معناه بغـيـر "الذرة المشوى" والذرة المشوى، يفقد معناه، من غير "خالة مبروكة"! والمصطافون على شاطئ المندرة يعرفون "خالة مبروكة"، كما يعرفون رمال الشاطئ.

إن لكل منهم عندها كل يوم "كوزا" من الذرة، تشـويه فى عناية، وتلفـه فى الورق الأخضـر، ليخفف من حـرارة الكوز، ويحافظ على سخونته مع ذلك.

والحديث مع "خالة مبروكة"، دائما لذيذ وشهى.

- كوز طرى يا خالة مبروكة.

- ليه يابنى ؟ سنانك وقعت؟

- الطرى أحسن.

- طيب يا حبيبى.

●●●

- يابنى الناشف بخيل وحاله حال.

- بس مقرمش.

- كيفك ياضناى.

- عاوز عشر كيزان يا خالة.

ليه يا حبيبى؟ عندك عيد ميلاد؟

وعيد الميلاد - يبقى بذرة؟

دا الذرة أحسن حاجة يا ابنى.

لأ.. عندى كتب كتاب.

●●●

وتضحك مبروكة مع كل الناس، حتى يخيل لكل المصطافين عن مبروكة، أنها لم تعرف أبداً معنى للحزن!

مع الشبان تضحك! مع الشابات تضحك! ومع العجائز أيضا تضحك! وأكثر ضحكاتها مع الأطفال!

هكذا تعيش مبروكة على الشاطئ.

كيزان الذرة حواليها وبعضها فوق النار.

وفى يدها مروحة قديمة بالية، محروقة الأطراف، تحرك بها الهواء لتشتعل النار، وعلى شفتيها ضحكة لا تذوى.

ومبروكة تمتاز بعينين كحيلتين جميلتين.. لكنهما عميقتان كالبئر، وفيهما دائما سر مكتوم.

لابد أنها كانت حلوة جداً، وهى صبية.

إن وجهها مستطيل ونحيف، وتتدلى من أنفها عدة حلقات صفراء على عادة البدو الرحل، وهذه علامة أخرى، تميز مبروكة من كل بائعات الذرة المشوى على كورنيش الإسكندرية.

والناس فى المندرة لا يذكرون متى جاءت مبروكة إلى هذا المكان، لكنهم يعرفون فقط أنها جزء من المكان الذى تحلته. والأجيال تتعاقب، وهى، لا تغير مكانها؟

الأولاد يكبرون، ومبروكة هى هى!

والبنات يتزوجن، وقد يأتين بصحبة أزواجهن.. ومبروكة هى هى!

والأطفال ينتقلون إلى الجامعات ومبروكة لا تنتقل من هذا المكان!

وتقول مبروكة عن نفسها:

أنا يا ابنى وقف.. ونسيوه! وعندئذ تبدو فى صوتها نبرة حزينة، تتخفى فى ضحكات غامضة!!

●●●

وقد استطاعت مبروكة، أن تصبح على مر الزمن، خزانة لذكريات الشاطئ.

ما من خفقة حب، تأودت على رمال الشاطئ، إلا وكانت مبروكة أول من راقبها!

ومن من نزوة حمق، ترنحت على طريق الكورنيش، إلا وكانت مبروكة أول من تابعها!

وقبلات مخطوفة، أو ملهوفة، لها فى خزانة مبروكة سجل محفوظ!

وأزواج تعرفهم مبروكة يتهربون فى زحام الشاطئ، ليمتعوا النظر بأجسام ممشوقة كعصى الخيزران!! ويكذبون، عندما يتلاقون بالزوجات، بعد أن كن قد يئسن من عودتهم، فيبررون الغيبة بكلام معسول!

- **بحثت عنك فى كل مكان.**

- **.. ولم أنتقل من تحت الشمسية!**

- **وكل الشماسى متشابهة!**

- **.. إلا شمسيتنا، فهى كالحة من القدم!**

- **يا شيخة؟.. حرام عليكِ!**

- **وأين كنت؟**

- ألم أقل لك بعد؟

- ماذا قلت؟

- عن عبد المعبود بك.

- قلت لى إنه سيسافر إلى أوربا.

- ولم يجد مكانا فى طائرة؟

- يا راجل!!

- والله العظيم.. وقد أخذ يحكى لى عدة....

- .. ساعتين؟؟

- لا لا... هل تأخرت ساعتين؟

- وأكثر!!

- رجل ثرثار..!!

- وتضحك مبروكة، وتبتلع الضحكة فى كمها!!

●●●

وزوجات تراهن مبروكة، يرحن ويجئن فوق رمال الشاطئ، وكلمات غزل رخيص تلاحقهن فى كل مكان، وهن مستغرقات فى ضحكات مشجعة ومثيرة.. والأزواج فى الانتظار على جمر!! وتعود الزوجات، وفى فم كل منهن حكاية!

الولد كان تائها.. وكاد يضيع!

كشك المرطبات صار له طابور.. كالجمعية!

مبروكة لم توقد بعد النار لتشوى الذرة!

.. وتتململ مبروكة فى جلستها، وهى تسمع، وتهمس فيما بينها وبين نفسها:

- اتركوا مبروكة فى حالها! هل لابد من مبروكة لتغطيا الذنب؟!

●●●

... وتعرف مبروكة كل حكايات الشاطئ.

تعرف ما لا يعرفه الناس.

لكن مبروكة كرمال الشاطئ، أو موج البحر.. لا تتكلم!

قد تزيد فى لحظة، أو قد تعلو فى داخلها أمواج الضيق!

وقد تصبح - كالريح - هوجاء! لكن من داخلها!

وفى كل الأحوال، فهى خرساء تدارى ثورتها.. بالضحكة!

●●●

وكما تعرف مبروكة أسرار الشاطئ، فلديها تقرير كامل، بتواريخ غرام يتحرك كالموج!.. وعشاق ذبلوا من سهر

مضنى!.. وإشارات خجلى، أو حيرى، أو مقتحمة!..
و"صنانير" تصادف سمكا.. يغلى بالحركة، "كالبلطى" لكن
تخطفه "صنانير" الصيادين، ليقع! والوقعة قد تصبح خطبة،
ثم زواجا، ثم ذرارى! لكن الوقعة، قد تصبح أيضا فخا
منصوبا من محتال، يترك صيده حين يقع!

وتصنف مبروكة كل وجوه الشاطئ، لتضع الأشكال فى
موضعها.

●●●

هذا الرضيع الصغير، قد كان منذ سنتين، شهقة إعجاب
فوق الشاطئ!

وهذه الصغيرة الشقية، قد كانت من أعوام، دمعات
يسكبها اثنان، من فرط الشوق!

.. أما ذلك الممشوق كغزال، فقد اخطأها ربيع الحب،
فظلت تنتظر على مضض.. ولكم صال صاحبها وكذب،
وقدم دمع تماسيح، ثم... هرب!

والمخبول الأجرب ذاك، ذو الجلد المقلوب، يعرض نفسه
طول اليوم وطول مواسم تتعاقب، لكن.. لا فائدة! سيظل
الأجرب.. أجرب!!

وتضحك مبروكة، لكن ـ وعلى عادتها ـ لا تفصح عما تضحك!

●●●

وذعرت مبروكة ذات صباح، حين وجدت "نادية" الصغيرة الحلوة تبكى!

وكان يبدو أن بكاءها هذه المرة، عميق ومؤثر وأليم.

إن مبروكة قد اختبرت طول العمر، دموع الشاطئ، وأدركت أنها كرذاذ البحر، تهب فجأة وتهبط فجأة..

لكن دموع نادية كانت مختلفة.. لا تقصد منها التمثيل، أو التهويل، إنما كانت سيلا يتدفق بالهم وبالحيرة!

فى سرها.. تبكى!

تتخفى عن كل الناس.. وتبكى!

تغرق نفسها فى البحر، ليتوه بين الأمواج، وتغسل عينيها فى الماء المالح.. لكن تخرج من بين الأمواج، ودموعها لا زلت تجرى فوق خدود كالورد!

ما هذا "يا نادية"؟

ولماذا الهم يابنتى، وأنت صغيرة؟

●●●

واستعادت مبروكة ما تعرفه عن "نادية"..

.. الطفلة الصغيرة كانت تحبو وتتعثر.. والأسرة تضحك، وهى تلاحظ مشيتها.

لكن الخطوات المكسورة، صارت خطوات ممشوقة، و"نادية" تخطو فوق الشاطئ، بثقة.

وتصبح "نادية" واحدة من ملكات الشاطئ، تبتسم، فتتفرج الدنيا! وتتحدث فتنصت كل الأسماع! وتجلس فوق الرمال، فيغار الماء، وتنزل بين الأمواج، فيثور الرمل!

وتأخذ "نادية" مع كل غروب "كوز الذرة" المعهود، وتتحدث مع مبروكة..

- والله.. وكبرت يا نادية يابنتى!

- ليتنى ما كبرت يا خالة مبروكة!

- لماذا يا نادية!

- أنت تعرفين لماذا؟

- لكنك يا نادية عاقلة.

- وما قيمة العقل.. بين مجانين؟

- العقل زينة يا نادية! إياك أن تدفعى هذا الثمن يابنتى.

- وهل هذا دائما... ممكن؟

- طالما أنك تعرفين..

- ..والكلام المعسول؟

- كلام الشاطئ، كعمر الشاطئ.. هو قصير.

- لكن دويه.. يعصف..

- والعاصفة تمر..

- وحتى تمر.. نموت من ظمأ الرغبة!

- ظمأ كالوهم! كصداع البحر.. يزول!

- هذا ما نحكم به ونحن بعيد.. أما في الدوامة...

- تدور الرأس؟

- عليك نور يا خالة.

- يحفظك الله.

●●●

لكن الأحاديث مع نادية، في لحظات غروب الشمس، تصبح مع الأيام، شاحبة.. ومترددة وتائهة..

تتحدث، لكن النظرات زائغة بين وجوه شابة!

وتقول كلاماً لا ترتبط مفاصله فيبدو مضطرب المعنى!

وتشرد مبروكة.. عن الذرة المشوى.. وقد تنساه!

ثم تمر الأيام، فتصبح نادية، فى ندرة زئبق.. قد تظهر، لكن كبريق خاطف..

نسيت مبروكة.. حتى مبروكة!!

.. ومبروكة مع هذا لا تنساها!!

تراقبها، وتتابع سيرتها... وتحترق حين تراها شاردة، وهموم الدنيا، تتزاحم فى داخلها!

ثم تراها تبكى، فتكاد تشركها الدمع، وهى أمام النار!

ماذا يابنتى؟ ماذا حدث لك؟

ولم تكن مبروكة ساذجة أو بلهاء. لقد فهمت لماذا كانت نادية، تحيا مع هذا الدمع المضنى!

ولم تك تلك أول تجربة تمر بمبروكة، فقد شهدت قصص الشاطئ، وتعرف منها أسراراً شتى!

واستطاعت مبروكة الغجرية، أن تحدد الطرف الآخر، فقررت أن تنقذ نادية مما هى فيه.

●●●

كان "سمير" فتى أسمر طويل القامة، حلو القسمات.. وعلى الشاطئ، كان وحيداً منعزلا عن كل الناس. يقرأ فى

صمت، أو يسبح فى قدره.

وما أغراه صخب الشاطئ. فينضم إلى مجموعات تضحك وتهرج، وتعاكس خلق الله فى خفة دم مرة، وثقل.. مرات!!

وظل وحيدا، يترفع عن هذا الطيش!

أفكار سمير هذا أذكى "الصيادين" على الشاطئ؟!

لقد مر الموسم تلو الموسم، وهو هو، لا يتغير؟

وكما لفت الصبيان أنظار بنات الشاطئ، فقد لفت سمير أنظار الملكات، بصلفه وهدوئه.

وفى مرة هبطت فاتنة الشاطئ تتهادى.

ونزلت نادية على الأمواج تسبح.

وتلفتت نحو الشاطئ لتلقى نظرة نحو سمير.

.. وما إن وصلت إلى عمق البحر، حتى شق إليها الموج، فوصل إليها كالسهم..

وغطس سمير، ليحمل نادية فوق ذراعيه.

.. وكانت قصة، انتهت بدموع الحسرة!

●●●

.. وفى ليلة من ليالى شهر أغسطس، فى سنة من تلك السنوات، تغيبت مبروكة عن جلستها.

وكانت تلك هى غيبتها الأولى.

وبدا الكورنيش، عند شاطئ المندرة، كمعطف نزعوا واحدا، من أزراره! فوقفت عنده كل الأنظار، تبحث عن شئ مفقود أو ضائع!

بينما مبروكة عند سمير، فى مسكن أهله.. وحدهما!

عرفت مبروكة متى تذهب، وكل الأسرة ـ عداه ـ فى السينما.

وفوجئ سمير بزيارة مبروكة.

.. وأحس أن الغجرية لم تحضر إعجاباً به، أو شوقاً له..

قال لها:

ـ خير يا خالة مبروكة!

ورأى فى عينيها الشر! وتحول فى عينيها الكحل الأسود، إلى وهج من نار، كتلك الجذوة، تشوى الذرة عليها.

ورأت مبروكة أن تختصر الرحلة.. قالت:

ـ المعلم عرفان لم يترك لى إلا هذا الخنجر! أترى؟ ورأى سمير الخنجر بين يديها يلمع!

قال سمير وهو يصطنع هدوء النفس:

ـ أولا من هذا المعلم عـرفـان!.. ومـالى أنا بالخنجـر!

وحكت مبروكة لأول مرة قصتها..

●●●

كنت غجرية صغيرة، أقرأ للناس البخت.. ولم أك أملك من دنيـاى إلا "المقطف"! وبعض "ودع"! وكلمـات مـبـهـمـة وغامضة، تزيل الهم أو تعالج ضيقا من حالة!

كنت أتاجر بالأمل الحلو، وبكلمات ترطب أفئدة حيرى، تحاول أن تجد المخرج من أزمة.

ولم أشعر أنى أخدع أحداً!

وماذا يضير الغجرية لو قالت عن خير يأتى؟!

وماذا يخسر مستمعى، لو قال الودع، أن النحس يزول؟

ومع الخبر يوم الاثنين؟..

ومع "عطية"، ساعة "صبحية"!

ومع واحدة "جاية"، الجمعة "الجاية"!..

.. مع هذه الكلمات ترتاح نفوس العشاق، وتهدأ لواعج قلقة!

الغجرية كطبيب النفس يابنى.

وعلى الشاطئ يحلو للمصطاف، أن يتخفف من تعبه، وأشق متاعب خلق الله ما لا يظهر!

.. كل هذا لا يهم..

المهم أنى رأيت المعلم عرفان، كان صياداً فارع الطول، قوى العضلات، يهز الأرض بقدميه، ويأتى مع كل صباح، بحصيلة سمك من كل الأنواع.

وهفا نحوى، وهفوت إليه.

لكن هل يسمح للغجرية، بأن تعشق صياداً من أهل الشاطئ؟

لم أكن أدرى ماذا يمكن أن يحدث لو عرف الغجر موضوعى مع عرفان..

إن الغجر.. غجر!

بؤساء، جوعى، لكن شعور العزة يقتلهم!

أليسوا سادة أرض الله؟!

أليس تنقلهم بالصحراء، وبرارى الأرض، إحساسا بالقوة؟! وتملك ما يحتلون من أرض، مهما بعدت، يجعل منهم سادة!

أما استقرار الفلاحين فى أرض القرية، فإن الغجر يعتبرونه.. استعباداً!! الأرض تستعبد فلاح الأرض... والمصنع يستعبد عمال المصنع!! والبحر يستعبد صياديه؟.. أترى روح الغجرى وتعاليه؟؟

لهذا فقد كنت كثيرة التفكير فى موقف أهلى منى، لو عرفوا أنى أحببت الصياد.

●●●

لكن الموقف تغير فجأة.

كانت الإسكندرية يا سمير، تموج بمظاهرات الطلبة والعمال ضد الإنجليز.

كان ذلك أيام زمان.. ربما قبل أن تولد أنت.

وكان ضمن رجال البوليس فى الإسكندرية، عساكر وكونستبلات وضباط إنجليز..

واحد منهم يابنى غازلنى مرة.

كنت جميلة كما قلت لك.

لكن الغجرية التى تتعالى على الفلاحين، تتعالى أكثر على إنجليزى مسلوخ الوجه.. أحمر!

لم ييأس الإنجليزى، فظل يغازلنى.

.. وفى يوم كنت أنتظر "عرفان"، فى مكانى الذى أحتله الآن، عند شاطئ المندرة، وكان الإنجليزى قد تعقبنى.

وكانت المندرة وقتها صحراء خالية، قل أن تجد فيها من يسير على قدميه، خاصة فى أمسيات خريف مهجور.

وفاجأنى الإنجليزى المسلوخ الوجه.

وهاجمنى فى خسة ودناءة.

وقاومته.. وظللت أقاوم وأجرى منه، حتى انشق البحر عن عرفان، فهجم عليه، وذبحه كالشاة، بهذا الخنجر..

وكانت محاكمة عرفان صاخبة.

أرادوا إعدامه، لكنهم خافوا من المظاهرات، فحكموا عليه بالسجن المؤبد..

قلت له وأنا أودعه فى المحكمة:

سأنتظرك يا عرفان، فى نفس المكان، فإن خرجت حيا، فستجدنى فى انتظارك، وإن مت فى سجنك، فسأظل فى مكانى، حتى آخر لحظة فى عمرى.

ولم يترك لى عرفان، إلا هذا الخنجر، والذكرى والأمل.

ولم يأت إلىّ بعـد يا ابنى!! ولا أدرى أين يكون؟.. أحى هو، أم مات؟!

●●●

وشعر سمير أنه أمام إنسانة... غجرية.. لكن إنسانة!

إنها تفوقت على نفسها، ظلت تنتظر المعلم "عرفان"، ولا يهمها إلا أن تنتظره!! تراقب حركات العشاق.. وتنتظره!!

وتأثر سمير من قصتها فقال لها:

- وماذا تنوين أن تفعلى بالخنجر؟

قالت مبروكة:

- لا أنوى أن أستعمل هذا الخنجر.. إلا إذا اضطررت إلى استعماله..

.. وفهم سمير ماذا تعنى.. كان يشعر أن نادية عزيزة عليها.. فقد صارت منذ كانت طفلة جزءاً منها..

وأراد سمير بدوره أن يختصر الموقف.. قال لمبروكة:

- وماذا تريدين من سمير أن يفعل؟ أتريدين استعمال الخنجر، حتى لو تزوج نادية؟

وضحكت مبروكة سعيدة ومرحة، وهى تعيد الخنجر بين طيات ثيابها..

●●●

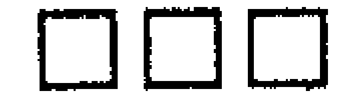
وفى أمسية من أمسيات شهر سبتمبر، والشاطئ خال من زحام المصطافين، كانت مبروكة ترقب شقة نادية وقد تحولت إلى قطعة من ضوء..

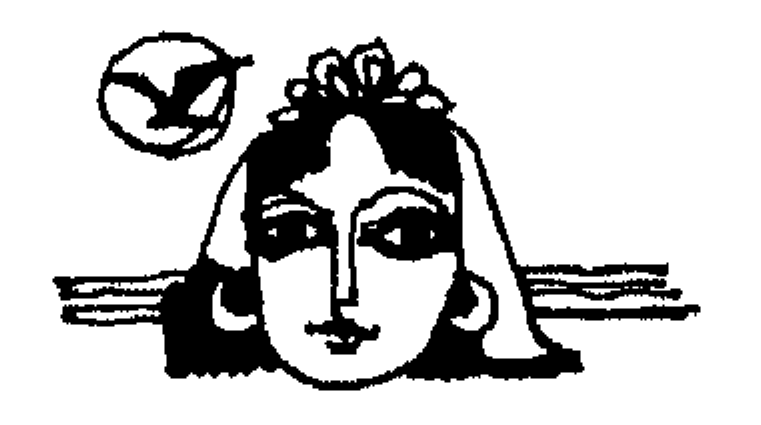
وكان المأذون واضحا لمبروكة تحت الضوء اللامع.

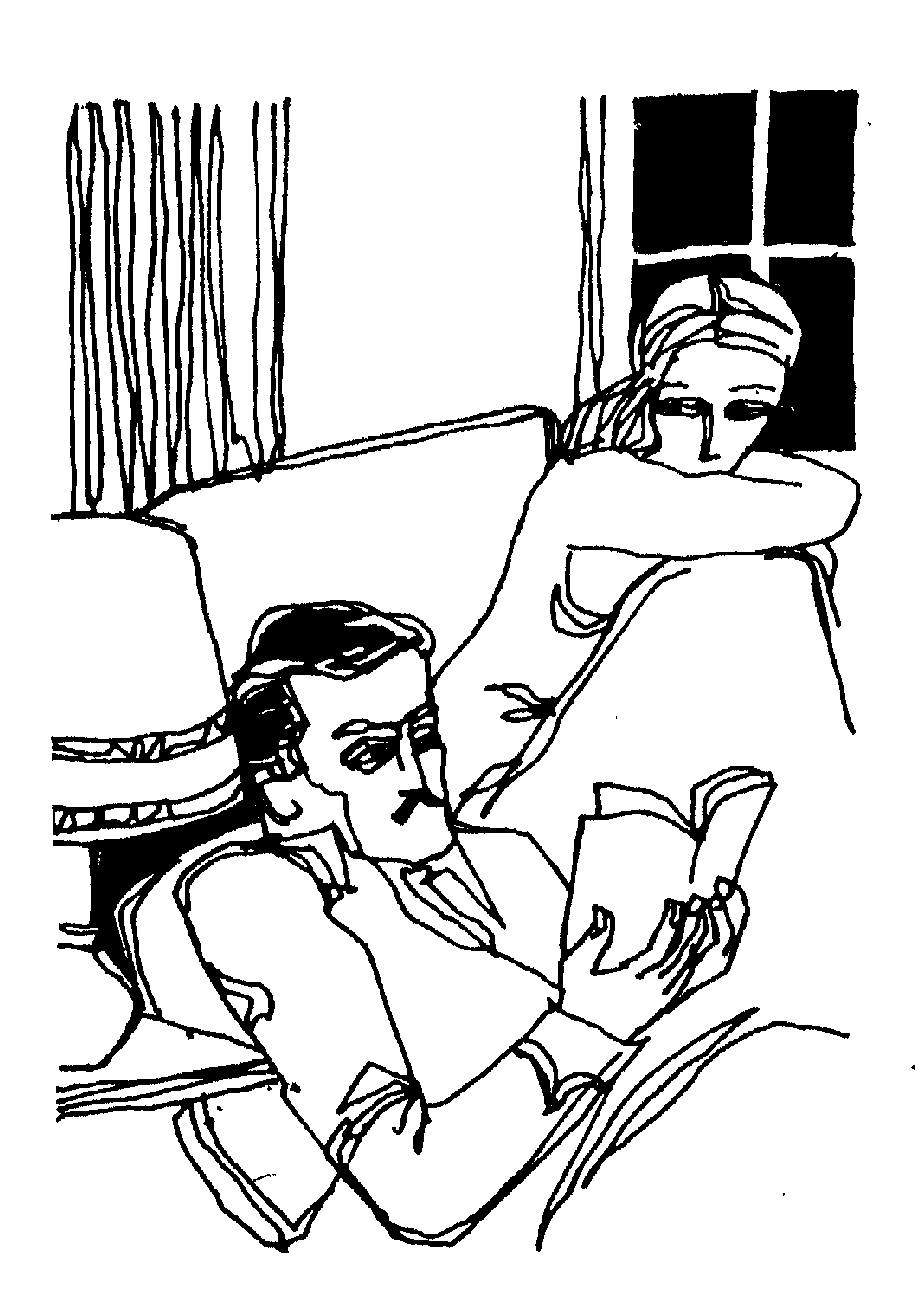
وسمير يضع يده فى يد والد نادية، ليتم العقد.

.. ولم تستطع مبروكة أن تفعل شيئا، الا أن أخفت وجهها فى كفيها، لتدارى دمعة!..

.. ثم تجفف الدمعة.. وتنتظر!!







كالبلح الرطب

الساعة كانت تدق اثنتى عشرة دقة.

انتصف الليل، و"عبد التواب"، ساهر، لا يستطيع أن ينام!

.. كتاب بين يديه، وعيناه فى سقف الحجرة!

والسرير قد أصبح كالشوك، لكنه - مع ذلك - مستلق فوقه، كمريض تمدد فى غرفة عمليات! تحت تأثير البنج!

.. وبدأت عقارب الساعة، رحلة يوم جديد.

وعبد التواب جاحظ العينين، والكتاب بين يديه، مفتوح على نفس الصفحة!

الكتاب وعبد التواب كلاهما فقدا الحركة فلم يعد أيهما قادراً، على أن يطبق عينيه.. أو يطوى صفحاته.

"عبد التواب" جاحظ العينين!

والكتاب جاحظ الصفحات!

والليل غاف، والسكون عميق، والريح خارج الحجرة، يداعب أشجار الطريق، فيكون له حفيف.. كتأوهات المحرومين!

بينما "نجوى" تغط فى نوم عميق.

.. وينعكس نور الأباجورة الحمراء، على وجهها الأسمر، فتبدو قسماتها، تحت الأشعة الحمراء، من شدة حلاوتها، كالبلح الرطب!

وتتقلب "نجوى" وتواجه النور فتتململ، وتحاول إبعاد النور عن عينيها، لكن حدة النور توقظها.. أو توقظ بعضا منها!

وتتحرك شفتاها، وهى تتمتم بكلمات متكسرة:

- لا تزال تقرأ؟

- بضعة صفحات، وينتهى!

- إلى هذا الحد.. يشغلك؟

- طبعا، طبعا!

- أكثر... منى؟

- وتقارنين نفسك.. بكتاب؟

- ليتنى كنت كتابا، لتسهر معى!

ـ أنت لا تحبين السهر.

ـ ... وحدى، السهر عذاب.

ـ وأنا أحب السهر.

ـ ... لتقرأ...

ـ آ.. ه يعنى!

ـ وتقرأ.. حتى لا تكلمنى!

ـ يا شيخة!

ـ على كيفك يا "عبد التواب"

ـ سأنام.. دقائق وأنام.

ـ تصبح على خير.

ـ .. وأنت من أهله.

●●●

ولم ينم "عبد التواب"!

الدقائق مرت، ولم ينم، وشدت الدقائق دقائق أخرى، ولم ينم.

وتقلبت.. "نجوى"، لتدير ظهرها للنور ولعبد التواب!

وشعر "عبد التواب" بحرية أكثر، وعيون "نجوى" قد ابتعدت عنه!

وأخذ يتذكر كلمات صديقه "صبحى" هذا المساء.

- كانت رائعة.. والله كانت رائعة.

- من؟ عمن تتكلم يا "صبحى"!

- ومن سواها؟

- سوى من، أو من، أو من؟

- لا لا.. هذه هى حبى الحقيقى.

- والأخريات ممن حدثتنى عنهن؟

- الأخريات، أخريات!

- أنا احترت.. كل مرة تصور لى حبك كأنه هو.. الحب الوحيد.. ولا حب بعده.

- أبداً.. إلا "سلوى".

- قل لى.. كيف وأين.. ومتى؟

●●●

وبدأ "صبحى" يحكى عن "سلوى" قصصا لا أول لها ولا آخر.

كأننا لم نفترق طوال هذه السنوات، الضحكة البريئة الناعمة هى هى. النظرة الساحرة الرقيقة هى هى.. ثم...

إنهـا لم تنس رحـلات ممتـعـة اسـتـرقناها مـعـا من الأهل والعواذل.. والزمن.

ان الذكريات يا "عبد التواب" جميلة.

تمر الأيام والسنون، وأتزوج أنا وأنجب أطفـالا، وتتـزوج هى وتسـافـر مع زوجـهـا ثـم تعـود، وفـجـأة نتـلاقى فكأننـا مـا افتـرقنا إلا لحظات وكأن الـزمن قد غفـا لم يهرم يا صـديقى ولا صـارت له تجـاعيد عجـوز شاخ! أبدا أبدا... ونشعـر كلانا بسعادة عصفورين على فـرع شجرة ياسمين، يتأرجح عطرها فيتضوع به المكان جميعا.

وتجحظ عينا "عبد التواب" وهو يسمع!

وتتردد أنفاسه أسرع مما تتوالى من قلبه الدقات!

ويشـعـر"عـبـد الـتـواب" إنـه هو "صـبـحـى"، وإنه يغـتـرف السعادة مع سلواه!

وعندما يسكت "صبحى"، يصيح به:

ـ وبعد.. تكلم.

ـ عذب يا "عبد التواب".. لقاء الأحباب.

ـ ولا تشعر بقدم الماضى؟

ـ أعذب الحاضر، ماضى يتجدد.

ـ أعذب.. مما كان.. وقتما كان؟

ـ فى وقته كان حاضراً.. فيه ملل.

ـ وعندما أصبح ماضيا؟

ـ اكتسب عمق التاريخ.

ـ .. ربما لأنك لا تعيشه!

ـ لا أدرى.. يكفينى أنه.. أحلى!

ـ تصورات..!

ـ فإن تكن تصورات لذيذة؟

ـ تظل تصورات.

ـ وتظل ـ مع ذلك ـ لذيذة.

●●●

وتزداد حدقتا "عبد التواب" اتساعا!.. ثم تضيقان من التعب والإجهاد، وتكادان أن تبتلا بدموع!

أفأنت وحدك يا "عبد التواب"؟

أفأنت وحدك، بين أصدقائك وزملائك، بلا ماض، وبلا تاريخ؟!

أفهذا ممكن؟ أتظل إنسانا بلا ماض، وبلا تاريخ؟

ويتقلب "عبد التواب" على جنبيه، ويغمض عينيه وكتابه بين يديه!

ويصحو مرهقا متعبا مكدودا وفنجان من الشاى بين يديه..

●●●

ويختلى عبد التواب بصديق آخر، ليسمع منه، كلاما آخر عن ماضيه.

كان شقيا، يهوى العمل المضنى.

وفى زمن ولى، كانت حكومات الأمس، فى ثوب آخر مستورد.

وكان الطلاب كثيرى الشغب، من أجل الحرية والتحرير.

وصديقه "عبد المنصف" يروى لعبد التواب مغامرات شتى. كيف تظاهر وهتف، وتصادم عدة مرات، مع العساكر والضباط، حتى مسكوه.

ثم أدخلوه تخشيبة قسم البوليس، ليتحكم فيه الشاويش "برعى"، ويشكو له امرأته الذكر مع ذلك.

ثم نقلوه إلى السجن، ليكون له قصص كتلك التى يسمعها من زملائه، وهم يضحكون!

●●●

ويسأل "عبد التواب" نفسه:

أفأنت وحدك يا "عبد التواب"؟

أفأنت وحدك بين أصدقائك وزملائك، بلا ماض وبلا تاريخ؟

أفهذا ممكن؟ أتزل هكذا إنسانا بلا ماض، وبلا تاريخ؟

إن "صلاح" يروى له هو الآخر حكايات عن بنت الجيران، وكيف كان يلقاها فوق السطح، حتى الصبح. ويقول لأهله إنه بات عند زميل يراجع معه دروسا صعبة وعصبية.

ويسمع عبد التواب مشدوها مبهور الأنفاس!!

ويقرر عبد التواب أن يصنع لنفسه ماضيا!!

إذا كان الوقت قد فاته، فصار يحيا فى حاضر بلا ماض، فإنه يستطيع أن يجعل مستقبله أفضل عندما يصبح لمستقبله ماض يتحدث عنه، كما يتحدث كل هؤلاء عن ماضيهم فى مرح.

●●●

لقد عاش "عبد التواب" حياة من نوع خاص.

كان كالصراط المستقيم، لا يعرف الاعوجاج.

حياته كانت مدرسته.. وأسرته.

وكان كل الأولاد فى المدرسة ـ فى نظره ـ منحرفين!

يكفى أنهم يلعبون الكرة الشراب فى الطريق العام!

يكفى أنهم يجلسون على "القهوة" ليشربوا قهوة، كما يفعل الرجال فى المآتم!

يكفى إنهم يتغامزون عليه، لأنه يحفظ دروسه عن ظهر قلب، ولا يخطى الإجابة عن سؤال أبدا!

ثم مالهم والمدرس... بل كل المدرسين؟

... مرة اشترى ضابط المدرسة بدلة جديدة، ولم يكن لديه إلا بدلة واحدة قديمة. وإذا بالطابور كله يبارك للضباط على البدلة الجديدة بطريقة سمجة وسخيفة. أخذوا يقولون فى نفس واحد "إش.. إش"! حتى فقد الضابط أعصابه وأخذ يضرب بعصاه كل من يمر به فى الطابور، ويضرب الهواء عندما يخلو الطابور من التلاميذ! وكاد الرجل يصاب بجنون، لولا تدخل الناظر، وتهديده بفصل من يضايق حضرة الضابط!

كان كل التلاميذ فى نظر "عبد التواب" منحرفين!

وعندما انتقل إلى الجامعة، صار الطلبة كلهم مخربين، وعاطلين!

مرة يضربون لوصول الوفد السودانى إلى مصر، لوضع أسس وحدة وادى النيل. ومرة ثانية يضربون بمناسبة مرور عام على وصول الوفد السودانى إلى مصر! ومرة ثالثة يضربون، لأن الوفد السودانى لم يعد لزيارة أخرى إلى مصر!!

عاطلون والله هؤلاء الأشقياء!

المهم أن "عبد التواب" كان تلميذاً لا نظير له، وكان طبيعياً أن يكون الأول على أقرانه. وكان طبيعياً أيضاً أن يكون آخر من ينفذ أى إضراب، لأنه يريد أن يتعلم!

ولم تكن فتيات الجامعة فى تقديره، أفضل من الفتيان!

إنه لم ير أمه تتجمل كما تتجمل فتيات الجامعة!

وله أخت لم ير ذراعيها عاريتين أبدا!

والحشمة عنده، هى التعبير عن احترام الفتاة لنفسها!

ودخل "عبد التواب" الجامعة، وتخرج فى الجامعة، ولم يجر بينه وبين فتاة من زميلاته حديث، ولا سلام، ولا كلام!

وماذا يمكن أن يكون معه وأية فتاة.. إلا الشيطان؟

أمه قالت له هذا، وهو يصدق أمه، وهو يخاف الشيطان!

●●●

وهذا أنت ذا يا "عبد التواب"، حاضر بلا ماض، وبلا تاريخ!

أو إنسان بلا روح!

●●●

"عبد التواب" قرر أن يصنع ماضيه.

.. وكانت "نجوى" تحيره.

هل "لنجوى" ماض؟!

هل هى ماض فى ذكريات رجل آخر؟

لقد تزوجها، بالطريقة المعتادة، أمه رأتها، وعرفت عنها أنها إنسانة طيبة وحلوة، وأنها من بيت طيب، إذن فهى تصلح "لعبد التواب".

وتمت الخطبة وعقد القران والزفاف، فى هدوء.

وملأت "نجوى" حياة عبد التواب بالسعادة والهناء.

تطيعه وتحترمه، وتلبى رغباته.

وهو يعولها ويوفر لها كل أسباب الراحة، ويعتبرها زوجة وأختا وصديقه.

شئ واحد بدأ يؤرقه، أن يكون له ماض، ككل الزملاء والأصدقاء ممن يعمل معهم، ويشاركهم فى مشروعات

ناجحة تقابل بالتقدير، وتدر لهم دخلا مرموقا.

لو أن له ماضيا، لاكتمل له كل شئ.

إن حاضره هادئ ومستقر، لكنه يفقد طعمه من غير ماض، يتحدث عنه، كما يتحدث الناس.

●●●

ـ لكن الماضى يا "عبد التواب" ليس حديثا يروى.

ـ يكفينى أن يروى.

ـ إنك لا تبغى إلا شكله!

ـ والشكل قبل المضمون.

ـ لكن وحده.. يتجرد من معناه.

ـ ومعناه بلا شكل، لا يجد وعاء يسكن فيه.

ـ تخيل هذا الماضى، وتحدث عنه.

ـ أفهذا يكفى؟

ـ لحديث يروى... يكفى!

ـ كالشاعر يتحدث عن محبوب لا يعرفه!

ـ وكالقصاص رواياته ملآى، بعرائس من صنعه!

ـ ولماذا أتخيل؟

ـ مطلبك إذن أن تتردى فى أخطاء.

ـ .. لا شكل هذا الماضى.

ـ فى غير أوانه!

ـ ليس هناك أوان.. للماضى.

ـ .. الماضى هو زمن الماضى.

ـ وما ضير الماضى أن يقع الآن.

ـ يصبح جزءاً من حاضر.

ـ ويصبح بعد قليل ذكرى أيام ولت.

ـ أفتأكل بطيخاً فى أمشير؟

ـ إن حفظته الثلاجة.

ـ ويكون له نفس الطعم؟

ـ لم لا؟

ـ فاكهة الموسم، فى غير الموسم.. "كوسة"!

●●●

ويفيق "عبد التواب" من حديثه لنفسه، وهو لا يزال عند قراره.. أن يصنع لنفسه، ما لم تصنعه له الأيام: الماضى! التاريخ!

وسيتحدث به عن خبرة!

وسيروى للناس تجربة حية!

وسيحكى... سيحكى حتى لامرأته!

لن يخجل من شئ، فماضى الإنسان جزء منه، والماضى لا يخجل!

●●●

وبدأ عبد التواب تنفيذ مخطط، على شاكلة الزملاء!

وقف يراقب مدرسة بنات مشهورة فى حى معروف!

وخرجن كغزلان ممشوقة، يضحكن ويتبادلن نكات شتى وعيون الحور فيهن ترقب بعض تلاميذ وقفوا مثله!

ولم تعبأ واحدة به!

وتكرر موقفه يوما بعد الآخر، وهن على ماكن، مشغولات بسواه.

وفى يوم جاءته الناظرة لتسأله: هل هو والد بنت غابت عن عينيه؟

وغاصت خطة "عبد التواب".. فى قدميه!

●●●

وفى صالة من صالات الرقص.. جلس! ولم يك قد عرف الشرب، ولا فتيات الليل، ولا حيل الصالات!

وفى جلسته وحده، جاءته صبية شقراء، تسأله عما يطلبه.

وشرب.. "عبد التواب" شرب فخف، وبدأت ضحكاته تنافس عزف الموسيقى!

وسكر وترنح... ثم دفع!

●●●

وقال "لنجوى" إن عليه أن يسهر كل مساء، فى مشروع هام وخطير، فدعت أن يصحبه التوفيق.

ولم يكن هذا المشروع، إلا الصالة والشقراء، وكئوس شراب تفقده الوعى، فيضحك ويتبذل، ويخلع أردية الحشمة!!

وتعلم كيف يكون الرقص على نغمات الجاز والسامبا!!

وفى يوم نهرته الشقراء، لتصبح له، أو تتركه!

وصار لها..

وبدأ ينافس "صبحى" و "يوسف" و "عبد السلام"، بحكايات عن ماضيه!

وبهت الزملاء، وهم ينصتون "لعبد التواب"!

ماذا حدث؟ وماذا جرى؟

●●●

وفوجئ زملاء "عبد التواب" بالشقراء تقتحم المكتب، تسأل عن زوج أفاق غدر بها!

وتقدم "عبد التواب" يسترضيها ويؤكد إخلاصه!

ولم تقبل إلا أن يصحبها، وأن يتخلص من "نجوى"!

ولم يقبل عبد التواب أن يترك نجواه، فهى لم تذنب!

●●●

وبدأت أزمة!!

أزمة ماض، تصنعه فى حاضر!

أزمة زمن، يركب زمنا آخر!

أزمة من يتصنع.. فيتصدع!

أزمة من يسرق، ليتباهى بالمسروق!

أزمة كذاب، لا يخدع إلا نفسه!

●●●

لكن "نجوى" كانت فوق الأزمة.

غفرت، وطوت الجرح فى طى الكتمان، ثم مضت، تؤدى حق الزوج، وحق الأسرة.

وعندما هدأت العاصفة، عادت سيرتها مع "عبد التواب"، تتركه مع كتابه، تحت نور الأباجورة الحمراء، وكتاب بين يديه.

لكن صفحات الكتاب صارت تنتقل بين عينى عبد التواب، ونجوى تتقلب تحت النور الأحمر، فتظهر قسماتها السمراء من فرط حلاوتها.. كالبلح الرطب!

●●●

ويشرد عبد التواب عن دنياه وكتابه، ونظراته تمتص.. عسلا معقودا، فى وجنات امرأته، وشفتاه ولسانه تلوك البلح الرطب فى القسمات الحلوة، تلمع تحت النور الخافت.

ويسأل عبد التواب نفسه:

أفكان الماضى المصنوع بقادر، على أن يملأ جنبات النفس؟

وهل كان الحل هو التزوير، تقليدا للناس؟

وكيف يكون الماضى؟

أفيصنع؟

آفيسرق؟

وما قيمة ماض مصنوع، أو مسروق؟

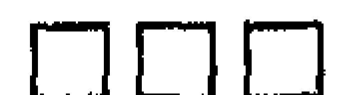
أفيثرى هذا الماضى، ما فى الحاضر من قيمة؟

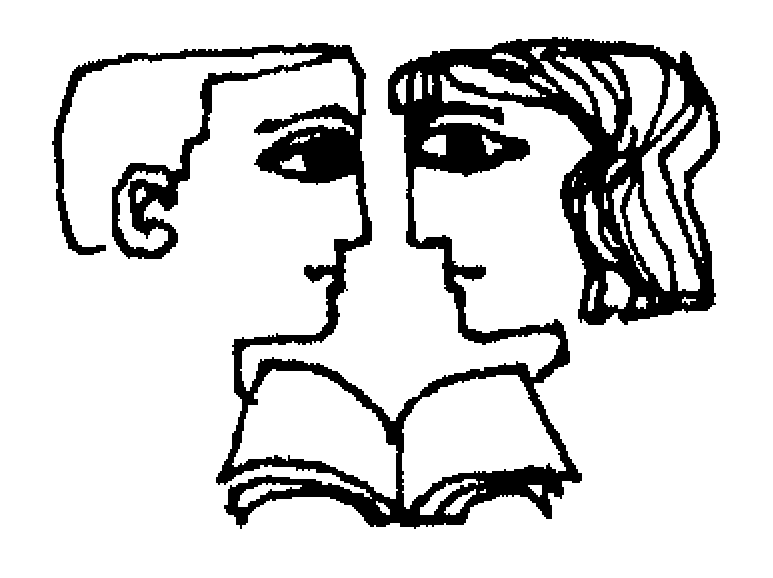
أيضيف إلى ما يملكه الناس، شيئا آخر؟

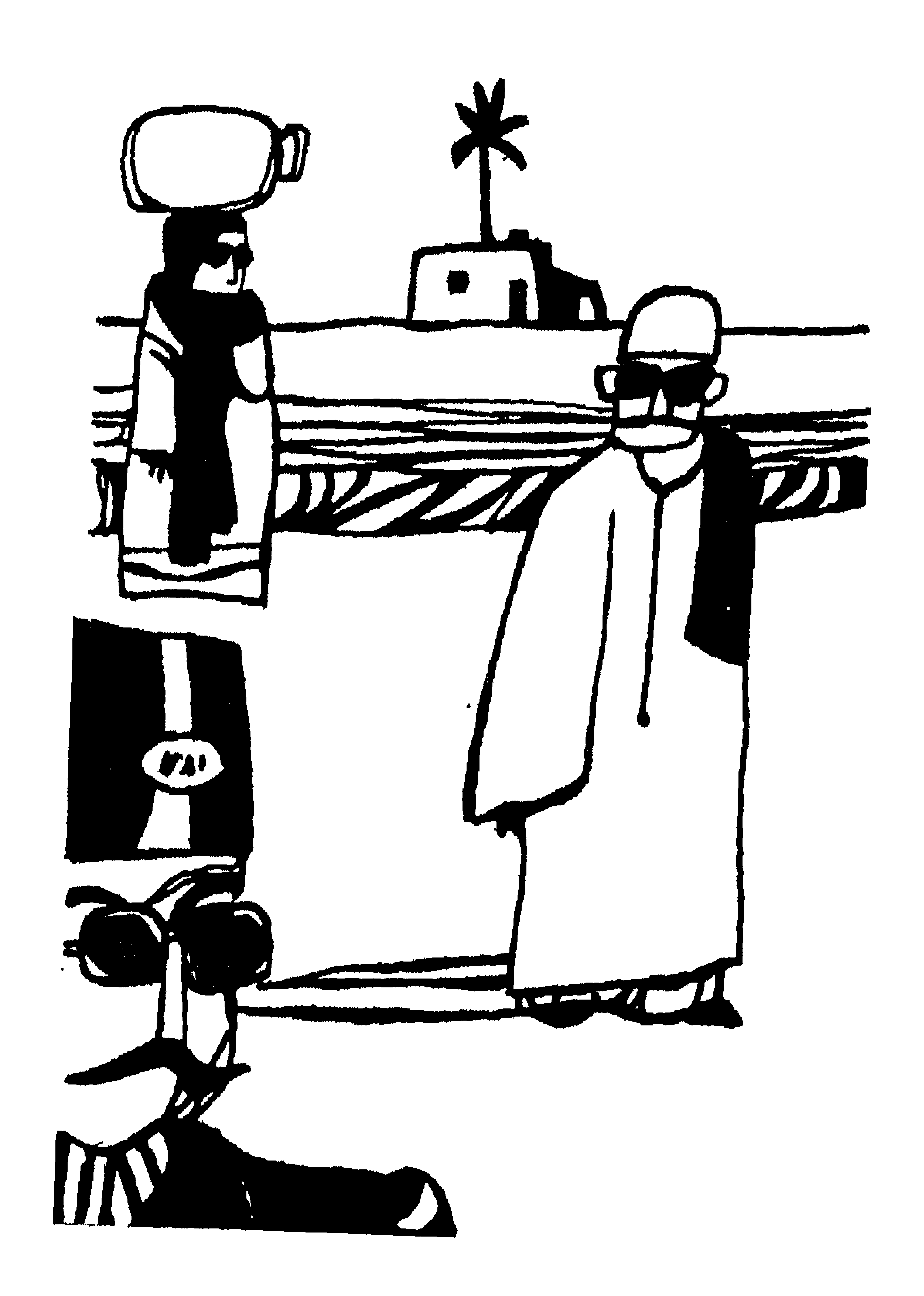
فإن أنقص، أو أهدر، أو أصبح خطرا... فما معناه؟ إن الحاضر ـ لولاه ـ يصبح أثمن.

ويقلب ـ د التواب نظراته، بين كتاب بين يديه، ونجوى تتمدد جنبه.

ويطبق صفحات كتابه، ليذوق طعم البلح الرطب... طعم الماضى والحاضر.. والمستقبل.







متولـــى

ماذا جرى.. يا بلدنا ؟!

ماذا جرى للناس؟!.. والضحكة البشوشة على الوجوه.. أين ذهبت؟!

والوقفة الشجاعة، وشهامة الرجال.. لماذا توارت؟

والأبواب المفتوحة.. لماذا اصطكت مغلقة؟.. أمن الخوف؟

ووجوه الناس فيك يا بلدنا.. لماذا صارت غير الوجوه؟!

حتى عيون الناس.. العيون الصافية، المشعة من اللمعان.. قد انطفأت، وأخذت تتوارى وراء حجب أو أقنعة.. تعزلها عن الدنيا!

ولماذا يستقبلنى الناس.. هكذا ؟

أهم خائفون؟ أمنى أنا.. يخافون؟

أم هم يتوجسون؟ ولماذا يتوجسون؟

●●●

قل يا "عبد العليم".. ماذا جرى؟.. ويضحك "عبد العليم" فى بلاهة!

قولى "ياستوتة".. ماذا حدث؟.. وتطيل "ستوتة" النظر إلىَّ، كأنها لا تعرفنى!!

.. وأنت "يا أبو طرطرر".. تكلم.. حـــدثنى!.. لكن "أبو طرطرر" يبدو بأذنين، واحدة من طين، والثانية من عجين!!

حتى أنت يا "سبع اليل"، تهز رأسك، وتتركنى أسأل، ولا تجيب؟!

ما هذا؟! هل أخطأت المكان؟ أهذه بلدنا، أم أن الطريق قد أخذتنى إلى بلد آخر؟ أفهؤلاء أهلى وأقاربى وأصدقائى، أم أنهم غـيـر الناس، لا تربطنى بهم رابطة من دم، وحب، وإخـاء.. أو جلسات على مصاطب القرية، نضحك.. ونضحك.. حتى تنتهى سهراتنا عادة بحكمة نفيق على أثرها من الضحك، لأن "كثرة الضحك تميت القلب"!

أتراهم هم هم.. وأنا، أنا وحدى الذى تغيرت؟!

إن أحـدا لا يرد علىّ، ولا يحفل بقدومى، حتى أبناء عمومتى!

كلامى يذهب إلى آذان مثقوبة! وإشاراتى تتلاقى بعيون تتخفى وراء حجب!!

أهذه هى بلدنا؟! أفهؤلاء أهلها؟!

وأخذ "الشيخ رزق" يضرب كفا بكف، وهو لا يعرف ماذا يفعل.

.. ومضى الشيخ حائرا، يبحث عن شخص واحد، يتعرف منه على ما حدث لهذه القرية! أتكون الشياطين قد ركبت أهلا، فلم يعودوا هم أنفسهم؟! أتكون عين حسود قد أصابتهم بشر أو سوء؟!

لكن من ذا يجيب، وجميع أهل القرية قد تغيروا؟!

●●●

.. وعلى جسر النيل وقف، يطل على القرية، وعقله شارد. ورأى "الشيخ رزق" شبحا آتيا من بعيد، فأخذ ينظر.. لعل وعسى!

وعندما وصلت "طاهرة" إلى حيث يقف الشيخ، أدارت له ظهرها، وعادت من حيث أتت!

وأخذ يناديها، فتتلفت نحوه، ثم تسير.

وعندما سار خلفها، أسرعت الخطى، لتتجنبه!

وهو يحاول اللحاق بها، فجرت منه كفرس شارد!

.. ولم يتركها "الشيخ رزق" فجرى خلفها، ليلحق بها، كانت "طاهرة" فرصته الوحيدة، ليتعرف منها على ما حدث لأهل القرية، خلال غيبته عنهم.. هذه المدة الطويلة.

وعندما وصل إليها، حاولت أن تفلت منه.. ولكنها وجدته أمامها، وقد تقطعت أنفاسه، وقد أخذ يصيح بها:

- حتى أنت ياطاهرة؟

- سيدى.. اتركنى فى حالى.

- لماذا يا "طاهرة"؟

- والنبى يا سيدى..

- أولا أعرف ماذا حدث لك؟.. ماذا حدث لبلدنا؟

- شئ غير معروف ياسيدى! هل دخلت القرية؟

- ولم يعرفنى أحد!

- .. فقط لم يعرفوك؟

- الله..! وهلا يكفى أنهم لم يعرفونى.. يا "طاهرة"؟

- معذورون ياسيدى؟

●●●

وبدأت تحكى الحكاية من أولها.

فى يوم من الأيام، ترك القرية، "الواد متولى بن برعى الحاج صميدة".. تعرفه يا سيدى؟

قال الشيخ رزق: عز المعرفة.. العايق أيو شعر مفروق!

ثم استأنفت "طاهرة" الحكاية:

كان "متولى" قد ضاق بحياة القرية، وجفاف العيش، وعتمة الليالى، فى زمهرير الشتاء.. وكان يقول إنه سيذهب إلى مصر، ليعيش حياة البندر، فى ضوء الكهرباء، وليال لا تنام، ونساء كالملبن!

وعندما ترك القرية، لم يحفل به أحد، حتى أبوه "برعى الحاج صميدة"!

ومرت الشهور، شهرا بعد شهر، ولا تشعر القرية، بأن واحدا من أبنائها.. غاب!

وبعد مدة، لم يحسبها أحد، ظهر "متولى" فى القرية.

فجأة جاء، وقد ارتدى جلبابا من السكروتة، وعليه معطف براق، وفوق رأسه طربوش معووج، يكاد أن يأكل جزءاً من حاجبه الأيمن. وكان زر طربوش يتدلى على جنب، يهتز فوق أذنه اليمنى، كلما تحدث إلى الرجال، وكان شعره قد طال ولمع، فظهر الفرق كأنه خط حاد أبيض، ليس فيه منبت واحد، لشعرة واحدة! وكثيرا ما كان يخلع الطربوش ليظهر الفرق!

وأهم ما كان يميز "متولى" نظارة شمبرها أصفر يلمع كالذهب، لا تفارق عينيه... أبدا!

وكانت مع "متولى" حقيبة جلد سوداء تلمع.. وكانت الحقيبة دائما معلقة فى يده اليسرى، وكانت حقيبة "متولى" أوجه من حقيبة حكيم الصحة!

وحكى "متولى" قصصا غريبة عن مصر.

لكن قصص "متولى"، كانت تكرارا لقصص أخرى سمعتها القرية، من "المعلم حندس" الذى صار بائع خضروات فى دمنهور، و"الأسطى برعى" الذى اشتغل فى مصانع المحلة، و"يوسف أفندى" الذى التحق كاتبا بمخبز فى كفر الزيات.

إنما كان الجديد فى حكايات متولى، أنه يعمل "نظاراتى"..!!

ـ مرة واحدة "ياواد يامتولى"؟

ـ أى والله!! مش قلت لكم؟

ـ قلت إيه "ياوله"؟

ـ البلد دى فقر.. إنما مصر، حاجة تانية.

●●●

وأخذ يحكى عن صنعته أشياء مثيرة جداً.

سأل "متولى" أهل القرية:

ـ مين فى الجهة دى بيلبس نظارة؟

ـ الدكتور.

ـ ومهندس الرى.

ـ .. دا حتى الضابط معندوش نظارة!

ـ مش كل الناس تقدر على النظارة.

ـ هيه غالية؟!

ـ مش مسألة غالية.. لبس أكابر..

ـ يا..ه!

ـ الواحد كمان من غير نظارة.. أعمى!

ـ ما احنا شايفين أهو، من غير نظارات.

ـ شايفين إيه؟ أنتو شايفين حاجة؟ أمال لما تلبسوا نظارات تقولوا إيه؟!

●●●

وبدأ أهل القرية يفكرون فى هذه النظارات، ويتمنون لو أنهم جربوها، ليروا أشياء لا يرونها بعيونهم، التى أنهكها

الحقل! وملأها تراب الخماسين!

وفجأة فتح "متولى" حقيبته اللميع، ليضع نظارة أنيقة على عين شيخ "الغفر" وهو يقول له:

ـ شوف بقه الوجاهة.. إياك تقلعها يا شيخ "الغفر"!

واختال شيخ "الغفر"، بالنظارة فوق عينيه!

وغار أهل القرية جميعا من شيخ "الغفر"!

●●●

كانت حقيبة "متولى" مليئة بالنظارات.

جمعها من محل النظارات الذى يعمل فيه، بعد أن تغيرت مقاساتها، ولم تعد تصلح لأصحابها، فتركوها فى المحل، بعد أن تسلموا نظارات أخرى على المقاس.

ولم يحفل المحل بهذه النظارات القديمة، فأخذها "متولى" وتصرف فى شنابر مناسبة لها، وقال فى نفسه: سيفرح بها أهل بلدنا.. جدا.

●●●

قال أهل البلد لشيخ "الغفر":

ـ شايف إيه بيها يا شيخ الغفر؟

ورد شيخ "الغفر"، وهو منتفخ الأوداج:

- شايفكم على حقيقتكم.. يا غنم!

.. ونظر أهل القرية، كل منهم للآخر، وهم يحسدون شيخ "الغفر" على هذه النعمة، ويتمنون لو أنهم صاروا مثله.. على عيونهم نظارات!

وأخذ كل منهم يتقرب من "متولى"، ويتملقه عساه أن يضع على عينيه نظارة، كنظارة شيخ "الغفر".

ولم يكن متولى عبيطا، ليتساهل فى هذه الثروة التى جمعها!

ولم يكن كذلك يريد أن يبقشش، على الناس.. بالنظارات!

لكنه أمام الإلحاح والاستجداء، بدأ يضع نظارات على عيون وجهاء القرية، حتى نفذت النظارات التى كان يحملها، وامتلأت حقيبته اللميع.. بالجنيهات الفكة!

وعندما غادر "متولى" القرية، ودعه أهلها على المحطة، وهم يرجونه ألا يغيب، وأن يحضر فى المرة القادمة عددا آخر من النظارات.

ولم يخذل "متولى" أهل القرية، فسرعان ما عاد، بالحقيبة اللميع، ليفرغ ما فيها من نظارات، على وجوه أهل القرية، ويستبدل النظارات.. بجنيهات فكة!

وشهدت بلدنا حياة جديدة..

لم يعد فى بلدنا عين واحدة مجردة من نظارة، ولم يعد أحد يرى عيون الناس، إلا من وراء نظارات!

حتى النسوة، جمعن القرش فوق القرش، والبيضة بعد البيضة، وكوز الذرة مع كوز الذرة، وحرمن أنفسهن من كل شئ، ليكون لكل امرأة نظارة!

ولم لا؟ لقد سألت النسوة "متولى":

ـ والنظارات دى ياوله رجالى بس؟

قال "متولى":

ـ مين قال كده؟ الأكابر أكابر.. ستات ورجالة.

ـ يعنى مش حرام لبسها علينا؟

ـ دا الحرام اللى انتو فيه! النظارة على عيون الستات، أحلى من الحكل!

●●●

وتغيرت الحياة فى بلدنا "يا شيخ رزق"!!

صارت ترى الأشياء، فى صور أخرى، كما صارت ترى أشياء لم ترها من قبل!

مثلا "يا شيخ رزق"، فوجئت بلدنا بشيخ الجامع.. تصور شيخ الجامع، الرجل الورع الهادئ الرزين! المرهم الذى طالما عالج النفوس وأعاد إلى الأزواج المتخاصمين السكينة والوئام! أنه هو نفسه، قد طرد زوجته من بيته، لتعود إلى بيت أبيها.

- ماذا فعلت؟ هل أخطأت؟

- لا.. لم تعد تروق لى.

- أبعد هذا العمر الطويل.. والطابور من الأولاد؟

- لم لا..؟ الله حلل الطلاق.

- بلا ذنب ولا جريمة؟

- لم تعد تعجبنى!

- كيف..؟ أتعاشرها للمرة الأولى؟

- كنت مغشوشا طوال هذا العمر.

- فى أخلاقها؟

- استغفر الله.. لم أقل هذا.

- إذن ما نوع الغش؟!

- قبيحة.. جدا.

ـ ومنذ متى اكتشفت قبحها؟

ـ النظارة كشفتها لى. قصيرة كالأقزام! وبدينة كالفيل!..
وكانت امرأته بدورها تكرهه، بعد أن كشفته لها النظارة، فبدأ أصفر الوجه، مخيف الملامح، كأنه ذئب! وكانت أذناه عريضتين تتدليان على جنبيه، حتى لتكادان تلمسان ذراعيه!!

واقترح أهل الخير أن يبتعدا فترة من الوقت، عسى أن يصلح الله الأحوال.

●●●

وعاشت بلدنا كلها بالنظارات يا "شيخ رزق".

وكانت النظارة مظهرا للوجاهة!

ثم إنها جعلت الناس يضحكون طويلا عندما يرى كل منهم الآخر، فى صورة عجيبة!

طوال الأنوف فى بعض النظارات، وفطس الأنوف فى نظارات أخرى!

حمر الخدود فى بعض النظارات، أو صفر الخدود فى البعض الآخر.

●●●

وتغيرت حياة الحب عند الموردة، وتحت ظلال الجميزة، فلم يعد كل قيس إلى ليلاه!

وبعدما كانت الموردة تشهد نظرات العشق، اختفت هذه النظرات، وراء النظارات، وصارت نظرات الصبيان إلى الفتيات جامدة، كما صارت تطلعات البنات إلى الصبيان باردة!

وتنهدت العشاق، صارت زفرات كفحيح الأفاعى!!

وبلدنا التى لم تك تعرف معنى لطلاق، شهدت صوراً شتى، لطلاق تم، أو لطلاق تحت التنفيذ!

وعيون الحور، تخفت خلف النظارات!

وسحر اللفتات، أطفاه زجاج مغشوش!

حتى أطفال القرية عرفوا الدنيا من نظارة!

ومات الشعر "يا شيخ رزق" وبحت أصوات الإنشاد عند الجرن، أو حول حصاد القمح، وصار مغنى القرية، هو ناعيها!

●●●

ومضت "طاهرة" تروى للشيخ:

الأنكى "يا شيخ رزق" أن "متولى"، عرف طريقه نحو قرى الناحية، فغطى أعين خلق الله.. بالنظارات!

ولقد كانت هذه الناحية، أرض سلام، فبلدنا ليس منعزلا عن بلدان الناحية.

بلدنا تزواج مع كل البلدان الأخرى.

وعرسان القرية، يختارون الزوجات، من أهل القرية، أو من قرى أخرى قريبة.

وتمتد الأوصال، بأنساب معروفة، لتربط أهل بلدنا، بأصهار من شرق أو من غرب، فتزداد العصبية بخئولة الأولاد، من بلد آخر.

لكن النظارات فوق الأعين، فعلت فعلتها.

●●●

الناس رأوا قبحا فى الزوجات!

والزوجات رأين فى الأزواج غلظة!

كذلك فإن الحالة بين البلدان صارت أسوأ!

بدلا من أن يتفاهم أهل القرية مع جيران القرية حول مياه الترعة - مثلا - صار تفاهمهم بالنبوت والكرباج والخنجر!! وترى الناس مندفعين إلى معركة، منتفخى الأوداج بوهم، أن خصومهم أقزام!

وعند سعار الضرب يكتشفون أن خصومهم أبطال، وأن مخاطرهم فوق الطاقة، فيرتعشون من الخوف، وتضيع عليهم مياه الرى، ويبور المحصول، ويبكى من يبكى همه!

النظارات يا "شيخ رزق". حولت الشجعان إلى حملان، فأساءوا تقدير الموقف.

وسمع "الشيخ رزق" لحكايات مختلفة.

ـ دخل أهل بلدنا معركة مع بلد آخر.

ـ وانتصروا؟

ـ .. بل ضربوا ضربا أصابهم بوجيعة!

ـ ولماذا ..؟

ـ ظنوا أن الأعداء ورق خريف أصفر.

ـ وكانوا ... ماذا؟

ـ أسوأ غدر ارتكبوه، ونحن ـ بالنظارات ـ خدعنا .. وركعنا!

ـ يا للعار!!

وأخذ "الشيخ رزق" يسمع "طاهرة" وهى تروى، ولا يكاد يصدق أذنيه.

قال لها :

ـ أنت "يا طاهرة" .

ـ هربت بجلدى.

ـ إلى أين؟

ـ إلى البندر.

ـ وما عملك.

ـ أعمل فى بيت مستور.

ـ وتهون عليك القرية؟

ـ إنى لأرى أمى، فتتكرنى!

ـ .. كيف وأنت حشاشتها؟

ـ لأنى فى النظارة.. قبيحة..!

ـ وكيف هى عندك؟

ـ هى أمى! بالنظارة أمى، وبغير النظارة.. أيضا أمى!

●●●

وعاد "الشيخ رزق" إلى القرية.

ولم يشأ أن يضيع وقته، فى مناقشات لا تجدى.

قابل أول فلاح، فمد يده إلى النظارة، وسحبها من فوق عينيه، ثم داسها بقدميه، لتصبح قطعا من زجاج منثور.

وصاح الفلاح وغضب:

- لماذا تكسر نظارتى؟

- لترى الدنيا بغير خداع.

- وتحرمنى مما أملك؟

- إن النظارة تفقدك الرؤية.

- أبدا .. إنى أفقد طعم الدنيا، لولاها.

- .. نظارة شخص، تعمى شخصا آخر.

- هى لى.. أليست ملكى؟

- ملكك عيناك.. ياأبله.

- والنظارة؟

- مغشوشة!!

- "متولى" أكد لى أن النظارة سليمة.

- "متولى" يستغفلكم.

- لا.. أبدا.

- هو نفسه مخدوع. ويريد ألا يصبح وحده، مفقود العقل!

ـ ولماذا يلبس كل الناس.. النظارات؟

ـ مخدعون!.. مخدعون!

●●●

ـ والخواجات..؟

ـ تقوى النظارات عندهم الرؤية.

ـ ونحن ألسنا مثلهم؟

ـ بالنظارات المغشوشة.. أبدا.. أبدا..

ـ .. إنك ظالم ومتأخر.

أفضل من أن أفقد نفسى... بتقليد أعمى!!!

●●●

ـ أو عشنا هذى السنوات مخدوعين؟

ـ معصوبين.. كثيران النورج والساقية!

ـ وهل أحيا بلا نظارة وحدى؟

ـ ليس مهما هذا.. قل لى كيف ترانى الآن؟

ـ .. أراك وأعرفك الآن.. أنت "الشيخ رزق".. ما حققتك بالنظارة!

●●●

ومضى "الشيخ رزق" يكسر نظارة، ثم نظارة، وبعدها نظارة، حتى كسر نظارات القرية.

ونظر الناس كل منهم للآخر، فرأوا أنفسهم مختلفين. شيخ الجامع، رأى امرأته كالعهد بها، حلوة، وفى عينيها طيبة.

وشيخ "الغفر"، لم ير كل الناس شياطين مردة، يهوى فوق رءوسهم بسياطه.

و"طاهرة" عادت للقرية، تترنح من فرحتها، وأم حرمت منها سنوات، تعانقها، وهى تبكى!

وصاح "الشيخ رزق" بهم:

الآن انظروا بأعينكم أنتم. تأملوا جمال الزرع، والحقول الخضراء، والنخل الفارع، والنيل الوادع، تأملوا أنفسكم. إن الحقيقة يا أهلى.. أحلى.

●●●

وشعر "الشيخ رزق"، أن سلام القرية محتاج لسلام أوسع.

وأخذ يطوف القرى، قرية بعد قرية، ليمد يديه إلى نظارات الناس يكسرها، لتصبح كل النظارات حطاما.

ولم تكن المسألة سهلة، فقد ظن القرويون أن وجاهتهم فى النظارات! فما إن خلعوا النظارات، ورأوا الدنيا بأعينهم هم، حتى عادوا يبتسمون!

وحضر "متولى"، وكانت فوق عينيه نظارة، وفى يده حقيبته اللميع.

لكن أهل القرية كانوا فى انتظاره.. بلا نظارات!

وذهل "متولى"، وقبل أن يفيق مد أهل القرية أيديهم إلى عينيه، ليسحبوا النظارة من فوقهما، ثم داسوها تحت الأقدام، لتصبح نظارة "متولى"، قطعا منثورة، فى طرقات القرية.

أما الحقيبة اللميع، فقد أفرغوا ما فيها فى جوف النيل، والتفوا حول "متولى"، يصفقون، وهو تائه عن نفسه، لا يصدق عينيه.

لقد رأى هو الآخر بعينيه، ما لم يكن يراه من وراء النظارة!

رأى جمال القرية، كفتاة بكر، تتنفس نسمات الفجر فتبدو أكثر فتنة، من ملكات السحر عند الرومان أو الإغريق.

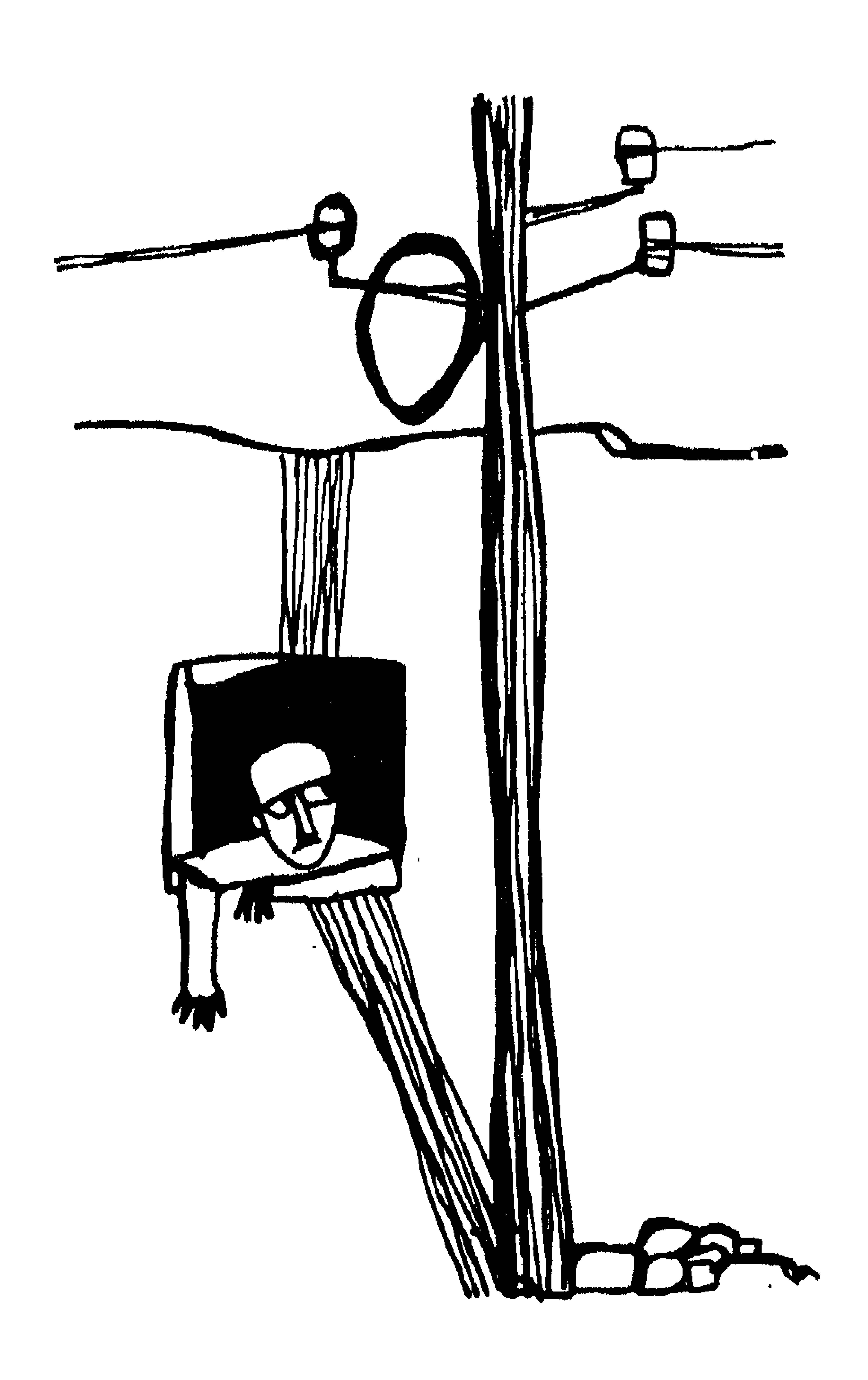
قال "متولى":

سأبقى معكم، أستمتع بجمال القرية.

●●●

وكـان أول مـا فـعله "مـتـولى"، أن خلع الطربوش والمعطف وذهب إلى أم "طاهرة"، يطلب "طاهرة".. زوجة!

□□□



النــور

فى قريتنا دخل النور...

مدوا اسلاكا مسحورة، بين العمدان...

وبلمسة طفل فوق المفتاح، يضئ!

وتتحول طرقات القرية، وأكوام بين الطرقات، ومصاطب أهل الريف.. إلى شعلة.

وتلمح تحت الوهج المنشور، وجوه رجال ونساء، كانوا ـفى الظلمة ـ كالأشباح، أو الأرواح، أو أسرار الليل... تخيف!

وتغير ما فى القرية من أقوال وحكم.

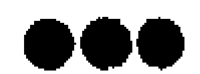
من قبل ـ مثلاـ كانت ساعات نهار مشرق، عيونا تخترق الكون وتكشف منه الغامض!

.. أما الليل، فقد كان ستارا يخفى العورة، ويطوى كل نوايا الشر، ولا تتكشف خطايا النفس، إلا بطلوع الشمس!

وتساوى ليل القرية، ونهار أبيض!

وانكشف المستور وظهر..

لكن كيف؟



(1)

إن الراوى لا يذكر متى وكيف بدأ.

لكنه تذكر صيحات الناس تجلجل.

الكهرباء يا أولاد، الكهرباء جاءت يا أولاد، الكهرباء دخلت بلدنا.

وفهم السذج من أبناء القرية، سر هؤلاء الأفندية، الذين وفدوا على القرية لمدة تقصر وتطول، كانوا يقيمون العمدان حديدا يمتد، ليتجاوز أطوال القامة، ويكاد يطول بيت العمدة!

وكان السذج من أبناء القرية يعجبون، لكن جواب العمال لم يك يشفى غلة.

هذه أعمدة للكهرباء!

لكن ما هذه الكهرباء؟ لم يكن يعرف تلك، أغلب أهل القرية.

فقد كان مشايخ أهل القرية يعرفون، ومعهم كان تلاميذ المدارس يشرحون، ومع هؤلاء وأولئك، كان الريفيون ممن ذهبوا إلى المدن، ليزوروا أقارب، استقرت إقامتهم فيها، أو ليزوروا أولياء الله الصالحين، يتذكرون الأضواء لكنهم لم يكونوا قادرين على تصويرها لأقاربهم، ولأهليهم من نزلاء القرية، أو كانوا قادرين.. ربما! لكن الأقارب والأهل ممن لم يغادروا أبدا قريتهم - وهم الأغلبية العظمى - لم يكونوا يفهمون عم يتحدث هؤلاء. فلما دخلت الكهرباء بالفعل، هاجوا وماجوا، وتصايحوا مهللين! الليل صار نهارا يا أولاد! لم يعد فى القرية ظلام. يانفر "أنت وهو وهو.. وهيه"!

وأخذ أهل القرية يمرون طول لياليهم بالطرقات، والحوارى، فلا يجدون ركنا يتخفى فى الظلمة! أو يستر فى العتمة! أو يتوارى من خجله! أو خوفه أو أوهامه!

●●●

(2)

قال الراوى:

.. وعاشت قريتنا ياسادة، أحلى لياليها.

كانت تسهر طول الليل تغنى، أو تنشد.

وألهبت أسلاك النور، خيال الشعراء والمداحين، فسهروا مع أهل القرية، بالموال، ومطارحه الأشعار، وتبادل حكم شتى.

وخرجت فتيات كبنات الحور، يتطلعن إلى النور، ويستعرضن أجمل ما فيهن، والنور الوهاج يزيد جمال وجوه طفلة بريئة.

وشباب القرية ينتهز الفرصة ليتطلع فى خبث مرة ووضوح مرة وحياء ـ مع ذلك ـ فى كل الأحوال.

كان الحرص على النور شديداً بين الريفيين، خشية أن يهرب! فلما زال الخوف، قل الحرص وصار النور فى قريتنا، كالأمر الواقع.

وبدأ التفكير فى استثمار النور، بطرق شتى.

الراديو قد كان يمثل من قبل مشكلة كبرى، فصار إحدى ثمرات النور، يتكلم طول الوقت، ولا تفرغ شحناته.

.. وتطلعت القرية إلى ما هو أمتع.. أتى التليفزيون.

دخل التليفزيون القرية ببرامج مختلفة، وكان ظهور الأشخاص على الشاشات معجزة فى ظن الناس، تاهوا فى كيف تكون، لكن المعجزة بعد قليل صارت كالنور، حقيقة، وعاشت قريتنا ياسادة، تتمتع بالنور، بثمرات النور، العمدة مثلا استقدم ثلاجة.

وحذا حذو العمدة، مشايخ وأعيان، ثم تسللت الثلاجة إلى بعض بيوت من طين!! ولم لا؟ إن الطين لا يمنع أسلاك النور من أن تخترق الجدران، وتحمل لمبات تتوهج، وثلاجات تحيل الماء إلى ثلج يطفئ عطش العشطان، ويرطب حر الحقل، ويحفظ لبن البقرة فلا يفسد.

وتحولت قريتنا إلى شبه مدينة.

●●●

(3)

إن جهاز عروس القرية بالأمس، لم يك يحوى النجف والتلفزيون أو الثلاجة فصارت هذه بعض الطلبات.

وهدايا الأهل للعرسان، قد كانت من قبل، حليا وملابس، وفى أحيان جاموسة.. وإذا التيار الوافد، ويفتح باب الإهداء، لأدوات تتحرك بالتيار، وتيسر للزوجة، بعض متاعب كانت تلقاها.

وظلت قريتنا مع ذلك تحتفظ بأغلى ما تملك.. بتقاليد القرية.

الكرم تضاعف.. ووسائله كثرت.

واطمئنان الأنفس، قد قتل الخوف من ظلمة طرقات القرية، فكثر الود وزاد.. فى النور الأبيض.

وكسب الناس عادات مبتكرة يعتمد أهالى القرية فيها، على التيار السحرى الوافد.

مثلا، طالت سهرات الناس، فتعذر أن يصحوا منهم عند الفجر، إلا القلة! والتكبير إلى الحقل، قد صار ظاهرة تندر! وتشذ!

والإقبال على النسل، تأثر بالسهرات، فقل الأولاد، وقل الجمع، بين الزوجات كذلك.

وساحات جرائم أشرار القرية انتقلت لحقول لا يكشفها النور، فخفت.

وصارت قريتنا يا سادة تألف هذا النور أكثر مما كانت تألف من ضوء الشمس، ومن توقيت اليوم، بأشعة فجر تترقرق، وخيوط غروب ذهبية.

وتحولت الألفة إلى صحبة.

.. والصحبة قد تصبح، نوعا من عشق، يملأ كل حياة الناس، ويوجههم دون إرادة!

ولقد كانت تلك.. مصيبة!!

●●●

(4)

فى ليلة انطفأت لمبة، فذعر الناس.

وفى ليلة عادت إحدى اللمبات فانطفأت.

.. ثم تكرر هذا المشهد فى ليلة وليلة.. وليال أخرى. وطلب الناس إصلاح خطوط النور، لكن لم يحفل بطلب القرية مسئول.

قالوا: هناك أمور أكبر تشغلنا.

وقالوا: أنتم أقدر على إصلاح اللمبات!

وقالوا: تصرفوا فالقرية قريتكم، وكفانا أنا أدخلنا النور إليها!

ولم تك قريتنا يا سادة قد عرفت سر النور، ولا هى حفلت بأن تتعلم أسراره!

إن النور قد دخل، والكهرباء قد جاءت، وصار حسب القرية أن تجلس تحت النور، وأن تستثمره بالقدر الممكن.

... تماما كطعام مستورد.. تأكله وتستطعم حلوه.. فإن مالت إليه، تطالب به، وإن نقص تشتاق إليه وتريده.. وإن توارى، لم تعرف كيف تعوضه! لم تتعلم طرق التعويض لتسلكها، حتى لو حاولت!

لكن قريتنا أيها السادة، قد كانت تحتفظ بأصالتها.

لقد صار النور كرغيف الخبز، وقريتنا تقتسم رغيف الخبز عند الحاجة.

وبدأت قريتنا تتقاسم هذا النور، لتستمتع بلمبات لم يحرقها بعد، طول العمر، أو سوء استعمال.

●●●

(5)

وأخذت قريتنا تنتقل مع لمبات النور.

تحترق اللمبة، فينفتح الباب فى بيت آخر، ليرحب بأصحاب اللمبات المحترقة.

وتحترق اللمبات هنا، فينتقل أهل البيت إلى لمبات، يتوهج فيها النور!

وينطفئ النور الوهاج، فيهاجر أصحابه، إلى حيث النور المتبقى!

وأخذت قريتنا تهجر بيتا، وتهاجر إلى بيت آخر.

لكن كثافة هجرة أهل القرية، قد صارت عبثا بمضى الأيام.

وأهل القرية فيهم صبر وشهامة، فما ضاقوا بالهجرة وإن كانوا قد تعبوا منها.

إن التليفزيون يرسل مباهج، تسر خواطر أهل القرية!

وحرق اللمبات، وفساد التيار، قد ساقته الأقدار، وليس لأحد ذنب فيه، ليعاقب بالحرمان عن النور! أو تيار مجنون!

إن فساد التيار فى البيت، كفقد الأسرة لفرد فيها... مات.. وواجب أهل القرية، عند الموت، تقديم يد العون، فلا يشعر أهل الميت بنقص أو حاجة.

●●●

(6)

ومضى الراوى يروى.

إن الهجرة يا سادة قد كثفت فى قريتنا، وتزاحم أهل الحرمان لدى أهل النعمة!

وذات مساء تهامس أهل القرية: إن النور يخفت فى بلدتنا.. يكاد يموت!

والقرية بغير النور تصبح عمياء.

.. ماذا يحدث يا أولاد! أتعود إلينا ظلمة ليل حالك! أيعود الأشرار إلى طرقات القرية! أيعود الخوف يؤرقنا! أتجف النعمة؟ أتزول مزية ليل القرية فى النور؟

... ماذا يحدث يا أولاد؟

أفتلك مصيبة.. مصيبة حلت بالقرية؟

أعين حسود استكثر هذا النور فى قريتنا؟

ومـاذا نـفـعل بـالنجف المتـدلى من أسـقـفنا؟ مـاذا نفـعل بالتليفزيون والثلاجات؟

حتى الرديو سكت عن أن يسمعنا أعـذب مانسمـع؟ نسينا طرقا بليت. واستعملنا التيار الوافد، بدلا من تغيير بطاريات الراديو!

.. ماذا يحدث يا أولاد!

لقد عشنا بالنور لكن النور يتدلل!

حـتى السـهـرات عند الجـرن نسـيناهـا، وكـذلك حـول الساقية، فى قمر وهاج!

ومصاطبنا قد صارت كالشوك من الخوف،من ليل فاحم!

ماذا يحدث ياأولاد!

●●●

(7)

وظل الذى كان يحدث.. يحدث!

اللمبة بعد اللمبة، تلقى مصرعها!

والتيار يفسد، ويمتد فساده إلى أطراف القرية، بل ويغوص فى قلب القرية.

والناس يتجمعون فى عدد محدود من بيوت القرية.

إن الخوف من فقد النور، قد صار يؤرقهم! والحرص على النور، قد أفسح للهجرة، بقايا العدد المحدود، من دور متفرقة من فزع الظلمة!

ويتأثر من خوف ضياع النور حتى القرويون، وهم تحت النور، حتى فى وهج الشمس!

جلسوا أغلب ساعات الليل، مع التليفزيون، فإذا فرغ التليفزيون من إرساله، استمعوا للراديو، والراديو يعمل ليلا ونهارا لا يتوقف!

وقلت لمبات النور، بمضى الأيام، فيتكدس أهل القرية تحت الباقى منها.

ولم يبق فى القرية إلا لمبة.. واحدة من لمبات النور فقط، صارت هى كل نور القرية!.. هى التيار المسحور! هى الكهرباء، فى قريتنا!

وتحت اللمبة الباقية، تجمع أهل القرية، وشفاههم تتحرك بالدعوات للمبة، ليحرسها المولى.

●●●

(8)

قال الراوى:

وفى ليلة مشؤمة أيها السادة انطفأت حتى تلك اللمبة.

.. وانكفأ الناس على وجوههم، وناموا!

وسأل جميع من فى الحلقة راوى القصة:

أولا تذكر تلك الليلة.

قال الراوى.

بالتحديد لا أذكرها!.. ولماذا أذكرها؟.. ليلة نحس هبطت على أهل القرية... أفلا يكفى هذا؟

قالوا له:

أو لا تذكر حتى الشهر؟

.. حتى الشهر لا تذكره!

أفكان ذلك شتاء مثلا؟!

قال الراوى:

لا.. بل كانت بداية صيف.. كالحصبة! أو كالجدرى! أو كالتيفود!

قال المستمعون:

هو إذن نفس الخاطر!

قال الراوى:

خاطركم منكم.. أما عنى فقد تاهت منى السنوات والأشهر.. بل الأيام.

قالوا للراوى:

وهل انتهت رواية قريتكم؟!

صاح يقول:

أبدا.. إن الرواية لم تكتمل بعد فصولا.

قالوا للراوى:

إذن.. فأتمها.

ومضى الراوى يروى:

●●●

(9)

إن قريتنا ياسادة لم تكن معزولة عن الدنيا.

كان بها أبناء كثيرون يعيشون خارجها.. طلاب للعلم هنا وهناك.. عمال مهرة فى مصانع مختلفة.

أصحاب لمهن شتى.. موظفون لهم هيبة... ضابط وعساكر. تتدفق منهم صحة وقوة وأمان.

.. ثم إن لقريتنا امتداد من أنساب وأصهار، فى قرى متقاربة، تتباعد أو تتدانى، لكن حنينا يربط بين جوانبها.

كذلك فلقريتنا أصناف تتعامل معها، تبيع لها أو تتسوق منها.

وكما كان لقريتنا هذه المكانة عند الأبناء، والأصهار، والتجار، فلقد كان لها أيضا خصوم يرقبون صورتها.

وقد أقبل هؤلاء وأولئك جميعا.

ووجدوا القرية خالية من أهلها!

ماذا حدث! وبيوت القرية مهجورة؟

وحقول خضراء، أهملها الفرحون حين ناموا.. ينتظرون النور!

ومواشى متروكة تأكل كيف تشاء، لا من يحرسها، أو يحلبها، أو يرعاها!

ونوارج فوق حصاد لم تتحرك فوقه.

وسواقى تنعى فى حسرة، من خاصمها!

ونواح بالليل تعوى كذئاب.

.. ماذا حدث لقريتنا!

لكن ما كان هناك أحد، يملك تفسيرا للحالة!

وأخذ الوافدون إلى القرية من خارجها، يبحثون.. فى البيوت المهجورة يبحثون! وفى الحقول العطشى يبحثون! وفى طرقات كاحلة - كقرافة - يبحثون.

●●●

(10)

وتبادل أبناء القرية الكلمات.

ـ هذه ليست قريتنا.

ـ القرية بلا ناس!

ـ لكن هذا بيت أبى.

ـ وهذا دوار جدى، ولا تزال منظرته البحرية جميلة.

ـ عمتى كانت هنا!

ـ وخالتى أيضا كانت هنا!

ـ وأين ذهبوا؟

ـ زلزال زلزلهم!

ـ لماذا بقيت مبانى القرية؟

ـ .. ذكرى!

ـ هنالك أمر غامض.

ـ لقد بحثنا فى أغلب بيوت القرية فلم نجد أحدا.

ـ لا تفقد الأمل. لا تزال هناك بقية.

ـ ستكون خاوية على عروشها!

ـ .. من يدرى؟!

ومضى أبناء القرية وأصدقاؤهم يبحثون فى بقية بيوت القرية.

وفى طرف القرية، وجدوا بيتا مغلقا، فوقفوا أمامه حيارى!.

ـ إن رائحة الحياة تطل من ثناياه.

ـ ولا تزال أنفاس تخرج منه، كأنها أنفاس بشر!

ـ لكنه بيت بلا حركة.

ـ والحياة معنى الحركة!

ـ طبعا.. لابد للحياة من حركة!

ـ لكن السكون جزء من الحركة!

ـ لكنه عكس الحركة.

ـ ويبدو أن الحركة بغير سكون لا تكتمل!

ـ وماذا يعنى هذا؟!

ـ يعنى أن السكون هو النقطة.

ـ والنقطة لا شئ.

ـ بل هى أول الخط على كل حال.

(11)

واقتحم أبناء القرية هذا البيت المغلق.

وفوجئوا حين وجدوا أهل القرية منكفئين على وجوههم فى أخوة وتآخ.

وفتح أبناء القرية الأبواب، وفتحوا النوافذ..

..وتثاقل أهل القرية، وهم يتثاءبون.

قالوا:

من ذا أيقظنا من غفوتنا؟!

لكنهم وجدوا أبناءهم، وأقاربهم حواليهم.

.. وأصاب عيونهم الخدر فأخذوا يفركونها وهم يسألون فى لهفة:

- أفعاد النور!.. هل عادت الكهرباء إلى بلدنا؟!

- يفهم الأبناء والأقارب والأصهار كل شئ فأجابوهم.

ـ نعم عاد نور أقوى.

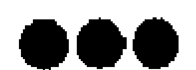
قالوا يستوثقون:

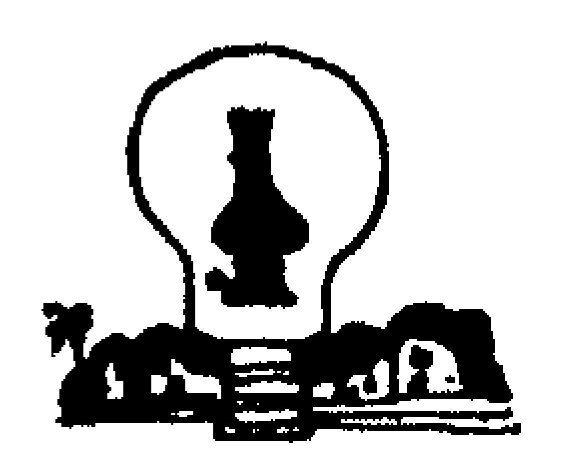
ـ لمبات أقوى.. أم التيار هو الأقوى.

قال لهم أولادهم:

ـ نور الله هو دائما .. الأقوى.

وهز أهل القرية رءوسهم يتأملون.





(12)

لقد وجد أهل القرية، أن بعض الأشقياء، قد انتهزوا فرصة غفوتهم، فاستولوا على أرض القرية ومواشيها وخيراتها.

وانتفضت أجسامهم بالكرامة، فحملوا عصيهم وفئوسهم وخرجوا متدافعين نحو الأشرار، فساقوهم أمامهم، وأخذوا يكيلون لهم من كل صوب، وبكل سلاح، فصاروا يجرون من الويل وهم مذعورون حيارى.

عندئذ نظر كل منهم إلى الآخر.

ونظروا جميعا إلى أبنائهم.

.. ثم ضحكوا من أنفسهم، ومن لمبات النور ومن التيار المجنون، ومن غفوتهم هذى الطويلة.

●●●

قال المستمعون:

- ولم يعرفوا أيها الراوى لم طالت بهم الغفوة!

قال الراوى:

- وقتها لم يعرفوا.

قالوا للراوى:

- وبعدها هل عرفوا؟

قال الراوى:

- أظن هذا.. ياسادة.

قالوا للراوى:

- وماذا فعلوا؟

قال الراوى:

- ما يفعله مخدوع.

اكتشف حقيقة!

□□□



عندما دقت الساعة

.. إنها تذكر طفولتها فى حنين.. وشغف.

تقول لكل الناس إنها بدأت حياتها. سعيدة.. سعيدة جداً. يوم ولدت ذبح أبوها خروفا، فداء لها فى غير عيد الفداء.

وفى عيد مولدها الأول، غنت أشهر مطربات العصر، فى حفل كبير حضرته مجموعة كبيرة من السيدات والرجال، فى ملابس زاهية، مزركشة، تكاد أن تضئ، تحت ثريات الكهرباء.

وفى عيد مولدها الثانى، قدم أبوها لها ساعة..

.. لا تذكر الآن كيف كانت هذه الساعة، ومن أى معدن صنعت!

بل لا تذكر إلام كانت تشير عقاربها!

كذلك لا تذكر هل كانت الساعة مضبوطة على الوقت الذى قدمت فيه تماماً.. أم أنها كانت مضبوطة على ساعة الصفر..

حيث.. لا زمن!

بل إنها لا تعرف هل كانت الساعة دائرة.. مليئة بالحيوية فتدور عقاربها، أم كانت خاوية من الطاقة، فلا تتحرك!

تعرف فقط أن أول هدايا والدها لها، كانت ساعة!

●●●

ومرت بها الأيام، فأحبت والدها حباً شديداً ومفرطا.

وكلما كان حب أبيها يزداد عمقاً فى قلبها، كان حبها لهديته يزداد مع حب أبيها.

الساعة صارت أحب شئ لديها.

لكنها ـ مع ذلك ـ لم ترحم الساعة من شقاوتها!

إن العاشق، قد يحطم ما يعشقه من فرط حبه له.. أحيانا.. وهذا هو ما حدث بينها وبين ساعتها.

أخذت تلعب بها، وترصها بين كراسى حجرتها الصغيرة، وترمى بها هنا وهناك، فتقع مرة على وسادة طرية، وتقع

مـرة أخـرى عـلى كـرسـى جلده خـشن، وتقـع مـرة ثالثـة على الأرض الصلبة!

ولم تشعر الطفلة الصغيرة.. الوحيدة.. أنها ترتكب بذلك إثماً أو أنها تخطئ فى حق أبيها، أو فى حق ساعتها.

كان أبوها يراها ويضحك.

وكانت أمها تراها وتضحك.

وفهمت الصغيرة، أن لعبها بالساعة يدخل على قلب والديها السعادة والبهجة، فتمادت تلعب بالساعة حتى.. انكسرت!

أمها فقط، هى التى كشرت.. ولفترة.

أما أبوها فمضى يضحك ملء شدقيه، وهو يربت على كتفها، ويمسح لها شعرها، ويضمها إلى صدره، يقبلها على وجنتيها.. فى وله المجنون.

وقال أبوها، فى مرح:

تنكسر.. تنكسر.. نجيب غيرها.

وفعلا، أتى لها بساعة أخرى، فى اليوم التالى على الفور. وأخذت الصغيرة تقارن بين الساعتين، لترى ما بينهما من فروق، فى الحجم، وفى اللون، وفى حركة العقارب، وفى الدقات.

وشعرت الطفلة، أن دقات الساعة المكسورة، لم تعد تسمع! نعم، لقد أصيبت الساعة، من أثر الكسر، بالخرس! صارت الساعة خرساء!

وعندما أصابها الخرس، فلم تعد تدق، صارت عقاربها مشلولة لا تتحرك!

وأخذت الصغيرة تجهد نفسها لتعرف.. هل بين الصمت وسكون الحركة صلة؟

هل تسكت العقارب عن الحركة عندما تسكت عن أن تدق!

.. وما معنى هذا؟

ولم تعرف كيف تجيب!

ولاحظ أبوها أن صغيرته تجهد نفسها فى المقارنة بين الساعتين، فعز عليه أن تظل أحداهما صامتة... مشلولة الحركة.

قال لها فى ود:

ـ يصلحها الساعاتى.. لتتحرك كأختها.

ولم تفهم الصغيرة أيضا.. ماذا يعنى أبوها بكلماته هذه القصيرة.

لكنها فوجئت عندما استيقظت من نومها، أن الساعة المكسورة قد اختفت، وكان أبوها قد غادر البيت إلى عمله.

ولم تشأ أن تسأل أمها عن اختفاء الساعة، لأنها لم تنس تكشيرتها عندما كسرت.

●●●

وعندما عاد أبوها من عمله، كانت الصغيرة تنتظره ـ على عادتها ـ لكنها هذه المرة، كانت تنتظر أن تسمع منه شيئا عن الساعة.

وقبل أن تسأله، قال لها:

ـ الساعاتى سيصلحها غدا.. وسيصبح لديك ساعتان، بدلا من ساعة.

ولم تعرف تماما ماذا يعنى أبوها لكنها تحبه وتصدقه، وهذا يكفيها.

ومع ذلك، فقد أخذت تنتظره فى اليوم التالى، لترى ماذا سيحمل إليها من مفاجآت.

وعندما عاد والدها من عمله فى اليوم التالى، كان يحمل معه علبة صغيرة، فتحها قبل أن يقبل عليها، لترى الساعة القديمة وقد أخذ يقدمها لها:

ـ عادت كما كانت.. بل أحسن.

هكذا أخذت الصغيرة تسترق السمع، ففوجئت بدقات الساعة تخترق الصمت. وفوجئت أكثر بأن عقاربها تتحرك.. تتحرك.. نعم تتحرك!

... ولم تدر كيف حدث هذا.

كيف عادت الحركة إلى العقارب المشلولة؟

وكيف عاد الصوت إلى الصمت المطبق؟

.. الساعاتى!!

ماذا فعل الساعاتى، ليعيد الحياة إلى الساعة؟

.. وانشغلت الصغيرة عن هذه الأشياء، بما هو أهم وأجدى.

●●●

لقد وضعت الساعتين متجاورتين لترى أيهما "أشطر"!!

.. أى صوت أعلى؟ وأى عقارب تسبق الأخرى؟

كانت تظن أن الساعة المكسورة ستكون أضعف صوتا، وأبطأ حركة، لكنها وجدت نفسها أمام شئ آخر جديد تماما عليها.

إن الساعتين تتحركان حركة واحدة، وإن دقات كل منهما، كدقات الأخرى.. تماما.

.. وأخذت تبحث عن الخلاف بينهما.

فى الحجم؟.. ربما!

فى الشكل؟.. ربما!

فى اللون؟.. ربما!

أما فى الحركة، فلا، وكذلك لم يكن هناك فرق فى دقات كل منهما.

المهم إذن ليس الشكل، ولا اللون، ولا الحجم.. أهم من هذا كله، العقارب، وكيف تدور، والدقات وكيف تتوالى!

لكن الصغيرة مع ذلك أخذت تلعب...

كان عندها ساعة واحدة، فصار عندها ساعتان.

كانت تلعب بواحدة، فصارت تلعب باثنتين!

ولم تكن تشعر بحرج، وهى تلعب بالساعتين أمام أبيها...

تصدم هذه الساعة تلك، أو تدفعها، أو ترمى بكل منهما مرة على الكراسى، ومرة على الوسائد، ومرة على السرير، ومرة على الأرض، لترى أيهما أكثر احتمالا لهذه المفاجآت!

وفجأة انكسرت الساعتان وتوقفت كل منهما عن أن تعمل!

وعندما رأتها أمها، وهى تتطلع إلى الساعتين المكسورتين، زادت تكشيرتها هذه المرة، عن تكشيرتها عندما انكسرت الساعة الأولى.

ووجلت الصغيرة من التكشيرة.

أما أبوها، فقد ضحك ضحكا طويلا، وهو يرى الساعتين، وقد وقفتا عن الحركة تماما، ووقفتا كذلك عن إصدار الدقات.. المنتظمة الرتيبة المتتالية.

وقال الرجل فى مرح:

ـ تعيش وتكسر.. الساعاتى موجود.

وفى صباح اليوم التالى، اختفت الساعتان من حجرة الصغيرة فأدركت عندما استيقظت أن أباها لابد أن يكون قد أخذها إلى الساعاتى.

●●●

لكن الصغيرة أحست فراغا هائلا فى نفسها.

إن اختفاء الساعتين، قد حملها على أن تشعر بأن شيئا هاما جدا قد صار ينقصها.

إن جزءا من حياتها قد اختفى عنها.

إن حياتها قد كانت ملوءة حياة وصخبا وبشاشة من خلال الساعتين، لكنها فجأة، لاتجدهما إلى جوارها تحطمان صمت البيت بالدقات، وتكسران سكون البيت بحركة العقارب!

بل إن واحدة منهما لم تبق لها.

وهزت رأسها كى تسأل:

أفما كان من العدل أن تنكسر واحدة، وتظل لها الأخرى؟

وظلت _لأول مرة ـ تعانى الحيرة والقلق، وتشعر بالإكتئاب..!

لكن ذلك كله قد تبدد، عندما عاد أبوها، مرحا سعيدا، وهو يناديها من بعيد، ويقول لها:

ـ ساعة جديدة حتى يصلح الساعاتى الساعتين المكسورتين.

وفرحت الصغيرة فرحة عمرها، وهى ترى هذه المرة ساعة يشع منها بريق الجدة، ويبدو عليها زهو من يدرك قيمته، لدى من يهدى إليه.

عانقت أباها عناقا حارا.. حارا جدا، وقبلته هى قبل أن يقبلها، فزادت فرحته بها وظل طوال المساء، يراقبها، وهى تتعامل مع الساعة الجديدة.

ومرت الأيام، فلم تعد الصغيرة صغيرة.

وعندما ذهبت إلى المدرسة، كانت الساعات التى لديها قد صارت عدة ساعات، فوضعت واحدة منها حول رسغها، وهى تشعر بالاعتزاز الشديد بساعتها.

وفى مناسبة أخرى، جاء إليها أبوها بساعة لم تر لها مثيلا من قبل.

إنها ساعة كبيرة، ذات أقدام تقف عليها.

دقاتها عالية، وعقاربها كبيرة... ثم لها جرس يرن، فى الساعة التى تريدها أن ترن فيها.

وقال لها والدها:

ـ هذا منبه. لقد كبرت، وأمك قد صارت متعبة، وهذه الساعة تنبهك، فى الساعة التى تريدين أن تستيقظى فيها، لتستعدى للذهاب إلى المدرسة.

وفرحت التلميذة بالمنبه فرحا شديداً جداً.

وكما فعلت مع الساعات من قبل، أخذت تلعب بالمنبه، حتى انكسر.

وكما فعل والدها بالساعات من قبل، أتى لها بمبنه جديداً حتى يصلح الساعاتى لها المنبه المكسور.

ومرت الأيام فصارت حياة صاحبتنا ساعات ومنبهات...

ساعات من كل الأحجام، والماركات، مصنوعة فى سويسرا أو بريطانيا أو أمريكا أو اليابان.

ومنبهات من كل الأشكال والألوان، ترسل رنينا متصلا عندما تصل عقاربها إلى الوقت الذى حددته تماما.

بل إن أباها حرص، استرضاء لها، على أن يحضر لها أنواعا أخرى من الساعات.

ساعات للمكتب، تضعها أمامها وهى تستذكر دروسها، وتطل عليها بين الحين والحين تأتنس بها.

وساعات معلقة على جدران حجرتها، تتحرك بالبندول المعلق أسفلها، فيذهب البندول إلى يمين أو إلى يسار، فى حركة رتيبة ومنتظمة... دون ملل.

ومنبهات مستديرة كالكرة، أو مستطيلة كمائدة الطعام، أو مربعة كإطار بعض الصور النادرة.

ساعات ومنبهات هنا وهنا وهناك.. وهناك.

وصارت حياة صاحبتنا ساعات فى ساعات فى ساعات.

وعندما شبت عن الطوق، ودخلت الجامعة، واختارت الفلسفة مادة لتخصصها، أخذت تستقرئ واقعها.

لم تستطع أن تتخلص من ارتباطها بالساعات، لتملأ بها حياتها.

لكنها لم تعد تنظر إلى هذه الساعات، على أنها لعب، ترميها هنا، وتقذفها هناك، وتدحرجها أحيانا كأنها كرات.

إنما صارت تدرك أنها تعيش مع الزمن.

وارتبطت الفيلسوفة الجديدة بفلسفة الزمن ارتباطا شديدا.

وصارت شديدة الإحساس بوقع الزمن على الحياة.

- بل إن الحياة فى واقعها هى الزمن.

- والزمن يمر.

- والحياة.. مع الزمن تمر.

- وأعمار الناس زمن.

- وعندما ينتهى الزمن، يموت الناس.

- ينتقلون إلى حياة أخرى ممتدة لا تنتهى.

- لأنها حياة.. بلا زمن.

- ولو دخلها عنصر الزمن؟

- .. لانتهت كما تنتهى أعمار الأحياء.

ـ التخلص من الزمن إذن..؟

ـ خلود.

ـ وفرق الخلود من الزوال؟

ـ ... الزمن!!

●●●

وتخرجت الفيلسوفة الصغيرة فى الجامعة، لكنها ظلت مرتبطة بفلسفة الزمن.

ـ ... وطأة الزمن عليها يؤذيها.

ـ وسرعة مرور الزمن عليها تزعجها.

ـ والوضع الأمثل زمن لا يتسابق!

ـ .. وأيضا لا تباطأ.

ـ إن طال الزمن، وصل العمر إلى أرذله!

ـ وإن أسرع الزمن، قصف الأعمار قبل أن تتفتح!

●●●

لقد نسيت الصغيرة، وهى تستعيد شريط حياتها هذا الطويل، أنها ولدت ونشأت فى بورسعيد، وأنها لم تغادر المدينة العزيزة، إلا طوال فترات الدراسة الجامعية أما بقية حياتها فقد عاشتها فى بورسعيد مع والديها.

وإنها لتغمض عينيها وهى تصل بشريط الذكريات، هذا الطويل، إلى يوم شعرت أن الدنيا اهتزت بها، فلم تعد تذكر ماذا حدث.

إنها تذكر فقط، أنها أفاقت لتجد نفسها مستلقية على فراشها فى إعياء شديد، وأنها تفتح عينيها، فى تثاقل، كأنها تشق جفونها بسكين!

●●●

وتجد الفيلسوفة نفسها.. وحدها.

فى بيت تصدع!.. ليس فيه أحد سواها! وكل ما تملكه من ساعات ومنبهات، من جميع الأشكال والأحجام قد سكتت!

العقارب لا تتحرك!

والدقات الرتيبة المنتظمة لا تصدر عن أى منها!

.. والصمت يخيم على الكائنات من حولها، كأنها بين قبور، على كل منها شاهد، يحمل اسم من فيه.

وكان أبرز شواهد هذه القبور شاهد يحمل اسم أبيها، وشاهد آخر يحمل اسم أمها.

.. ودمعت عيناها فى فتور.

وعاشت الفيلسوفة الصغيرة، ولا شئ فى حياتها يتحرك، إلا دمعها...

... بعد أن سكت الزمن!!

●●●

ومع وقفة الزمن، تاهت منها المعالم والمقاييس.

لم تعد تعرف، فى أى طريق تسير!

أتتقدم! أتتأخر!

أفخير هذا .. أم أن هذا شر؟!

أفيكون جمود الزمن أفضل؟

.. لم تكن تدرى!!

●●●

وعاشت الفيلسوفة الشابة سبع سنوات، وبضعة أشهر.

كانت مدينتها تذوب تحت عينيها والناس ينزحون عنها، واحدا بعد واحد.

لكنها ظلت، لا تتحرك من بيتها.

.. كالزمن الذى وقف لا يسير!

●●●

وفجأة ارتجت المدينة مثلما حدث أول مرة، ورأت أن السماء تبرق، كأنما هو شتاء قارس، بينما كان الصيف ورطوبة البحر، قد سدت أنفاس الناس.

وأغمضت عينيها خوفا من أن تضيع البقية الباقية لها: البيت المتصدع! والعمر الذابل! والساعات المشلولة!

وظلت مغمضة العينين، مستلقية على فراشها تنتظر النهاية.

لكنها سمعت هتافات الناس فى كل مكان.

كانت هتافات فرح وانتصار..

●●●

ولم تصدق أذنيها أول الأمر.

.. لكن هتافات الفرح ألحت على أذنيها.

وعندما أرادت أن تطل على الدنيا لترى ماذا حدث، وجدت إنها الحقيقة.

... إنه انتصار.. هذه المرة انتصار.

●●●

ساعتها قامت الفيلسوفة الشابة، إلى ساعاتها الصغيرة والكبيرة، والمعلقة على الجدران، لتتحرك عقاربها جميعا.

... وظلت تتعالج الساعات واحدة بعد أخرى، حتى دقت جميعها ..

... وتحرك الزمن!

قبل إفطار.

النصر فى رمضان.

□□□



نظرية

الاستمارة حمراء باهتة! وورقها خشن، كذقن رجل بوهيمى، لم تمر عليها الموسى لعدة أيام!

والاستمارة الأخرى بيضاء كبيرة.. كبيرة أكثر من اللازم، يحار الواحد كيف يرتبها مع جواز السفر، أو مع زميلتها الخشنة الباهتة!

ومع ذلك فإن لهذه الاستمارات،طعم الملوخية الخضراء، أو رائحة الحلبة فى "البتاو"!

ويكاد "مرعى"، أن يقضم هذه الأوراق، من فرط الشوق إليها!

إنها أول أوراق مصرية، يمسك بها بين يديه، بعد عمر طويل، قضاه هناك، مغتربا وبعيدا عن هذه الأرض الطيبة.

اسم المواطن..

المواطن!.. الله!! لا تزال "يامرعى" مواطنا، تحمل ملامح هذا التراب! ولا تزال الجنسية التى ستكتبها أمام الخانة المخصصة، إنك مصرى.. نعم مصرى.. من طينة قرية صغيرة على الرياح التوفيقى، من أعمال البحيرة.

انظر "يامرعى": هذه أرض المطار تموج بالبشر.. بلا نظام! تماما كهذه الاستمارات التى تمسك بها، وتشم رائحتها، وتكاد أن تقضمها، لتذوق الطعم الذى لا يزال يجرى له ريقك، من فرط الرغبة فى طعام، اعتادت أمك الطيبة، أن تعده لك.

ما أحلى بلدك.. وما أبسط هؤلاء الرجال، والنسوة، وهم يتزاحمون، بلا نظام، وبلا ترتيب!

فوضى!! فوضى بلدك لذيذة "يامرعى"، لأنها فوضى بريئة تحول الكبار إلى صغار، فيهم سذاجة طيبة.

لقد أتيت، بعد عمرك هذا الطويل، من بلاد يحكمها نظام صارم ودقيق، لكن بلادك ـ بفوضاها ـ لا تزال أحلى.

النظام هناك "يامرعى" نوع من القمع، حتى لا يسقط بين قوى المتصارعين.. قتلى!

بلادك قد تجنبت، بطيبة القلب، هذا النوع من الصراع، حول المصالح الدنيا، فلا تشعر بأنها فى حاجة شديدة إلى هذا النظام!

تتفلسف؟! أم أنك تبرر أخطاء بلادك ومواطنيك؟! ربما!! بل أبدا، هذه هى الحقيقة! إن المجتمع الغربى، بلا نظام صارم، يصبح غابة تتقابل فيها حيوانات، أما هذه الأرض الطيبة، فهى بلا نظام، لا تزال، منذ آلاف السنين، تعيش حياة البشر، بلا اقتتال!

●●●

وبعد أن ملأ مرعى استمارات الجوازات والجمارك، مضى خارج الدائرة المحظورة لغير المسافرين والقادمين.

ووجد وجوها لم يرها سنوات طوالا، تنتظر قادما من بعيد، ووجوها أخرى تودع مسافرا إلى بعيد، وبين مناظر العناق وقبلات الاستقبال.. تاه!

لكن ماهى إلا ثانية وعادت إليه ذكريات قديمة كانت قد تخفت بين ضلوعه، طوال سنوات عمره.. الضائعة.

وتحسس حافظة جيبه، ليخرج منها أوراقا قديمة، حز فيها الزمن، خطوطا عميقة كمن يصارعها.. ليصرعها! لكن أوراقه، كأهل بلاده لا يمزقها الزمن! يؤثر فيها.. نعم. أما أن يمزقها.. فلا!!

وبدأ فى ركن صاخب ينظر إلى هذه الأوراق.

لقد نظر إليها مئات المرات، لكنها لم تلهب مشاعرة كما تلهبها الآن، أوراق مصر، تستعيد فى أرض مصر رحيقها الحبيب الحانى.

هذه ورقة منها.. الورقة الأولى ربما.

إن كلماتها كحبات اللؤلؤ، صغيرة، لكن غالية.

... ياحبيبى أنت، أيها الشامخ فى كبرياء!

إنى أراك من وراء القضبان، أقوى من القضبان!

.. لأنك أنت الحرية، ولأنك أنت الترجمان الحى لكرامة الإنسان! يسجنونك! لكنك ستظل حتى فى السجن، روح الحرية، تتحرك بآمال المعذبين!

وسيزداد حبى لك، بقدر عنادك فى مواجهة أعداء بلادك من الغاصبين.

●●●

وعند التوقيع يغمض "مرعى" عينيه، ليدير صورتها بين جفنيه، كما يدير الطفل، قطعة من حلوى بين شفتيه.

... ليلى! اسمها ليلى!

ليلى كل زمان، وكل مكان.

وفى الصحراء، هى ليلى كل قيس! وفى الحقول الخضر، هى ليلى كل فلاح معصوب الرأس، يضرب الأرض بفأسه، وقلبه على ليلاه! وفى المدينة الفسيحة هى أيضا ليلى كل عامل أو موظف أو طالب علم! ومع كل سجين. تصبح ليلى قادرة ـ برغم الحراس ـ على اقتحام الجدران الغليظة الصماء! ولا عاشق، بلا ليلى، ولا ليلى بلا معشوق، ولحظات الضنى والصمت والعذاب هى طريق اللقاء ـ برغم العواذل والحساد ـ بين كل قيس وليلاه.

●●●

أو تذكر يا "مرعى" كيف كانت ليلاك؟

لحظة صدق صقلتها المحنة.

أو وقفة شوق ملهوف على طريق الانتظار.

هكذا كانت ليلاى.

والنظرة فى العينين، كدعوات العابد! والرعشة فى الشفتين، كقلق الأم، تنتظر وحيدا غاب! والهمسة كحفيف الصفصافة! والضحكة كخرير الينبوع على صفحة مرمر!

كتلة من أعصاب، كنت ياليلاى!

ومضة أمل، تملأ جنبات القلب دفئا فى شتاء قارس!

حركة دءوبة لا تتعجل! ولا تتبدل!

وحلاوة أنثى رقيقة، يهون فى سبيلها أى فداء.

ويمسك مرعى بورقة أخرى يبسطها فى رقة، ليخلصها من أثر الزمن عليها.

ويقرأ "مرعى":

لقد حولتنى يا زوجى البطل، إلى لهفة إليك، محفوفة أبدا، بخطر الحرمان منك، أنك قد تحضر إلى فى أية لحظة لأشفى منك غليلى، وقد تغيب عنى أياما لا أعرف متى تنتهى. أنت دائما ياحبيبى كالمفاجأة، وهذا ما يزيدنى أبدا شوقا إليك وحبا فيك.

ويسألنى "عادل" عنك حين تغيب، فلا أجد جوابا يقنع ابننا الصغير، لكن "عادل" ينسى كلماتى، حين يراك أمامه، تحمله بين ذراعيك، لتناجيه وتناغيه، وتكسر حدة قلق غامض ينتاب الصغير.

ومرة ثانية يقرأ اسمها الحبيب: ليلى!

ليلاى يا ليلى الليالى الساهرة!

ليلاى يا ليلى اللحظات الحزينة والظافرة!

ليلاى يا ليلى، ولا ليلى لى سواك!

وتستقل يا "مرعى" سيارة، لا تعرف إلى أين تمضى بها!
فقد طالت غيبتك، حتى لقد تاهت من بين عينيك معالم المدينة، وتاهت مع معالم المدينة ذكرياتك كلها!

أين تذهب؟

ألى ليلى، وعادل؟

وأين تجدهما، وقد تقطعت بينك وبينهما الأسباب؟

●●●

ـ لكنها ليلاى، وعال من دمى!

ـ .. والزمن يا "مرعى"، وقد مضى يطوى الأعمار!

ـ خصم يجب أن أتغلب عليه.

ـ لتفعل.. ماذا؟

ـ لأستعيد حياتى مع من أحب.

ـ لتعيد عقارب الساعة إلى وراء؟

ـ ليتصل الحبل المقطوع.

ـ ما قطعة الزمن، لاتعيدة المنى!

●●●

وتذكر "مرعى" كيف مضت به الحياة، وكيف أصبح عليه ذات يوم أن يشترى أمنه وأمن أسرته برحيل إلى بعيد، لايعرف أحد متى تكون نهايته.

وكانت السيارة قد وقفت أمام فندق كبير، يبدو أن السائق حمله إليه، متوسما أنه من نزلائه.

ولم يكن اسم الفندق، مألوفا لديه.

جديد! الفندق جديد! كل شئ قد صار جديدا! أشياء كثيرة جدت عليك يا بلادى، منذ غادرتك!

وأخذ يطل على كورنيش النيل، فشعر بأن رأسه يدور!

ياه!! فقد مضى عليك هذا العمر كله يا "مرعى" ! أربع قرن مضى؟ ربما أكثر من ربع قرن!

لقد صرت كأهل الكهف، تواجه دنيا جديدة، لا عهد لك بها عن قبل!

وأمسك "مرعى" رأسه بين يديه، يحاول أن يفيق من حلم طويل، أو لعله كان يحاول أن يمسك بقية الذكريات حتى لا تتسرب من بين طيات الذاكرة.

وبعد أن وضع حقائبه فى الفندق الجديد، عاد إلى سيارة أخرى، وفى هذه المرة قال بثقة:

إلى حديقة الأورمان..

وهناك هبط، ليدور بين الأشجار الباسقة، وأحواض الزهور، ونبات الصبار.

الحديقة لم تتغير كثيرا "يا مرعى".

.. ولا تزال ذكريات هنا منثورة بين ربوعها.

هنا كانت لك جلسة هادئة، تحت ظل الشجرة. تسمع إلى "ليلى" وتسمع منك "ليلى".

وهنا، أمام الورد الأحمر، طالما أمسكت بكفها، تتحدثان فى صمت، لغة لا يفهمها إلا كل ليلى ومجنون!

وهناك كم بثثتها لواعج هواك.

وحول الصبار، كم حدثتها عن قدرة الصبار - مثلكما - على أن يعيش بلا.. ماء.

●●●

ودقت ساعة الجامعة، نفس الدقات القديمة التى ألفتها أذناك، وأنت تتلقى العلم فى أمل، وتسير الهوينى بين المحاضرات، فى ثقة، وتحاور زملاءك وزميلاتك، والإيمان بالمستقبل، يملأ جنباتك.

ومع دقات الجامعة، وقفت قدماك عن المسير.

إنها دقات الزمن.

هى نفس الدقات، التى طالما دقت منذ أكثر من ربع قرن. لكنها تتردد اليوم، وفى دقاتها.. مشيب!

وتكاد تسأل دقات الساعة: أين ليلاى؟ أين عادل؟

لكنك تعرف "يامرعى"، أن حسب الساعة.. أن تدق!!

●●●

أتذهب إلى الجامعة يا "مرعى"!

أتذهب إلى حيث كنت تدرس، فى كلية الآداب؟

لكنك قد صرت شيخا يا "مرعى" وفى مدرجات الجامعة يتناثر الشبان كالزهور النافرة، وليس بينهم شيوخ مثلك، إلا أساتذة يحاضرون.

أفتجد ليلاك هناك، تنتظر مثلما اعتادت أن تفعل؟

لقد تركت حياة الجامعة منذ زمان بعيد، وسيكون ذهابك إلى المدرجات أو الحدائق أو الملاعب عبثا لا طائل تحته.

لكن لم لا؟

إن أنفاسها لا تزال هناك.

والريح العطر الذى أشاعته ابتسامتها، فى حرم الجامعة، لا يزال يتضوع هناك.

وذهبت يا "مرعى"، وكدت تصيح وأنت ترى الشباب الجديد: هذه ليلاى! كانت تثب هكذا! كانت تبتسم فى نشوة، كما تفعل هذه الصغيرة، ذات القوام الممشوق!

وأسدل الغروب أستاره، فغادرت الجامعة، كضمير تائه، يسرى بالليل.. نحو المجهول.

●●●

ها أنت ذا فى فندقك الذى يطل على النيل.

ما أحلى النهر الخالد.

يقيمون حوله العمائر، وهو هو نيل مصر العظيم.

يحاولون أن يطوقوه بالفنادق، ويبقى النيل كما هو النهر الوادع، الذى يحمل بصمات التاريخ.

أعجبا يا نيل! ياقاهرة! يا أهل القاهرة!

وتفتح حقيبة الذكرى.

هذا أنت قد أصبحت تمثل الأزمة.

أنت الحرية، لكن حراب أعداء الحرية، مصوبة دائما إلى صدرك، وتتخرج فى الجامعة، وتتخلف إلى عملك، وتفكر

فى لحظة، أن تترك حياة الكفاح لأجيال أخرى تأتى بعدك، لكن لا أحد يصدقك، فتظل الأزمة معك هى نفس الأزمة! وتمضى من سجن إلى معتقل، ومن معتقل إلى محاكمة، ومن محاكمة إلى اتهام، وأعداء الحرية فى بلادك. ممن داسوا استقلالها بالاحتلال، يتعقبونك حيث تذهب.

ولا يشفع لك عندهم أنك بنيت بيتا مع ليلاك، وأنكما أنجبتما "عادل" الصغير البرئ.

ويضيق الطوق حول رقبتك، بعد أن صار مقدرا عليك ألا تتراجع عن قصدك.

وتفر بجلدك إلى خارج البلاد.

وتذهب إلى دنيا غير دنياك، وإلى عالم غير عالمك، وتنشغل بعملك لتعيش، وتثب من نجاح إلى نجاح.

أو تذكر يا "مرعى"؟

لقد أصبح عليك، أن تغير حتى جلدك!!

إن أعداء بلادك أقوياء وجبابرة ولقد كانوا قادرين على أن يتعقبونك ليعاقبوك، لولا أنك غيرت اسمك وعملك، وأغرقت نفسك فى نشاط بعيد لا يدل عليك.

وكانت الرقابة تحاول أن تعرف أين تكون، وإلى أين ذهبت.

واتفقت مع ليلى، قبل أن تهرب بحريتك، ألا تكون بينكما مراسلات مباشرة، حتى تنجو ليلى وعادل من الغدر، وأن تطمئنها بين الحين والحين من خلال رسل أمناء.

وقامت الحرب العظمى يا "مرعى" وتعرضت مثل كل الناس لخطر الحرب.

وفررت من مدينة إلى مدينة، ومن قرية إلى قرية.

.. ومع ذلك، فقد لحقتك الغارات، ووقعت فى خطر قصف جوى شرير وأحمق.

وأصبت مع الآلاف الذين أصيبوا معك، ودكت الغارات الوحشية الحى الذى كنت تعيش فيه، وتحطم بيتك مع مئات البيوت الأخرى.

وذاع بين أصدقائك أنك ذهبت إلى بارئك.

وعندما انتظرت ليلى أخبار منك علمت من الرسل، وكانوا حزانى حيارى مضطربين، أنك قتلت وصرت ذكرى.

ومرت سنوات طويلة.. طويلة.. لا تلتقى بأحد من معارفك، أو من أهل بلدك، حتى كان صباح، وأنت تعالج من آثار الإصابة فى مستشفى من المستشفيات الأوربية..

وإذا بيد حانية تمتد إليك.

وتكاد تعرف أن لهذه اليد رائحة أهل بلادك.

وتطل على صاحب اليد، فإذا هو طبيب من مصر، كان ذات يوم من المعجبين بك، والمتحمسين لك.

ـ أهو أنت؟

ـ نعم هو أنا.

ـ ونتلاقى بعد هذه السنوات الطوال؟

ـ بعد أن كنت جثة يستعدون لدفنى.

ـ هذه مفاجأة لم أكن أتوقعها.

ـ وكيف مصر؟

ـ بخير وسلام.

ـ وكيف ليلى؟

ـ ليلى!.. لا تسل عنى ليلى!

ـ ماذا دهاك؟ هل أصابها مكروه.؟

ـ ماذا أقول لك؟

ـ قل.. بالله قل.

ـ لقد صارت ليلى.. وسامحنى.

ـ قل.. ماذا صارت؟

ـ لقد صارت.. أرملة؟

ـ وأنا حى؟

ـ قالت كل التقريرات عنك إنك مت فى الغارات.

●●●

وبدأت "يامرعى" تتعرف من طبيبك على كل شئ.

ـ ليلى قد صارت أرملة!

ـ وعادل قد صار يتيما!

والدنيا تمضى بالأرملة وباليتيم فتعيش الأم لولدها، ويعيش الابن، على ذكريات أب عظيم ذهب ضحية، ولم يستسلم.

وبدأت يا "مرعى" تتخيل صورة ليلى وقد ترملت، وعادل قد تيتم وتسأل نفسك:

أفبعد هذه الأعوام الطوال يصبح من مصلحة الأسرة الصغيرة أن تتعرف على الحقيقة؟

وفيم تفيدها هذه الحقيقة؟

لقد صار عادل رجلا، تخرج فى كلية الحقوق، واشتغل بالمحاماة، أما ليلى، فقد أخذت تمارس بعض الأعمال، حتى لا تظل عبئا على ابنها.

ولقد استقر فى حياة ليلى أنها أرملة مناضل قديم عظيم، دفع حياته مغتربا عن بلاده.

وكذلك استقر فى وجدان عادل، خيال عن أبيه يمثل إرادة الكفاح ضد الاستعمار، وضد الظلم، وضد الفساد.

●●●

.. واتفقت يا "مرعى" مع الطبيب، على أن يحتفظ بسرك، حتى تسمح ظروفك بمفاجأة ليلاك وابنك، بأنك حى لا تزال..

وقال لك طبيبك:

إنهما لا يزالان يعيشان مع ذكراك، لقد أقاما لك مدفنا ضمن مدافن الشهداء، ليزوراك فى المواسم والأعياد.

وبكيت يا "مرعى" لأول مرة.. على نفسك!

لكنك مسحت دموعك، فى انتظار لحظة تفاجئهما بوجودك.

وأخذت تحدث نفسك.

- ستراني ليلى، بعد ربع قرن أو يزيد.

- وسيرانى عادل، بعد أن فقد الأمل فى أن له أبا يعيش.

ـ وستتحول حياتنا إلى جنة، بعد أن رحل العدو عن بلادى.

ـ لكن هل يعرفانك لو رأياك؟

ـ هل تتذكر ليلاك فتنة شبابك بعد أن ولى؟

ـ وماذا عساه أن يفعل ابنك المحامى اللامع عندما يراك؟

ـ لكن لا يجوز أن يراك مهشم الضلوع كما أنت الآن.

ـ ولا يجوز أن تذهب إليهما تتوكأ على عصاك.

ـ يجب أن تذهب صحيحا معافىً قوى البنية، برغم المشيب، وغضون الزمن على جبهتك وفوق خديك.

ـ نعم ويجب أن تستعيد قواك قبل أن تفكر فى الذهاب.

●●●

ومضت الأيام، والعلاج طويل.. طويل.. طويل.

وأخذت تحيا على الأمل، فى أن تعود إليك حياتك القديمة من جديد، وعادت إليك صورة ليلى، وكل ليلى مع مجنون.

وعادت إليك صورة ليلى، وولد تناغيه، وهو بعد طفل وليد، ثم وهو صبى يحمل كراساته كل صباح إلى المدرسة.

.. ولقد مضت تلك المحنة، حين كان بيتك يهاجم بين الحين والحين، بحثا عن المنشورات!

نعم مضت هذه المحنة عنك، ولن تعود.

●●●

وها أنت ذا يا "مرعى" قد جئت، لتتعرف عنوان ليلى وعادل، ولا تعرف كيف تلقاهما فى القاهرة!

وفجأة ذكرت أن ليلى وعادل قد أقاما لك قبرا بين مقابر الشهداء، وأنهما يزورانه فى المواسم والأعياد.

وراجعت التاريخ، فوجدت أنه لم يبق على العيد إلا أيام، والناس فى مصر، لا ينسون موتاهم فى الأعياد! إن العيد يبدأ عندهم بزيارة الموتى!

وقررت أن تذهب إلى مقابر الشهداء فى العيد، وسيكون سهلا أن تتعرف على مقبرتك على كل حال!

●●●

وجاء العيد "يا مرعى".

وذهبت مع الذاهبين إلى مقابر الشهداء.

ولقد كنت الوحيد بين الزوار الذى ذهبت لزيارة قبرك أنت!!

وهناك وجدت فى زيارة القبر، سيدة حطمها الزمن متشحة بالسواد!

وكان معها رجل ممشوق القوام، قوى النظرات، تصحبه شابة صغيرة، فى يدها طفل جميل!

لابد أنها ليلى! لكن كيف يا ليلاى قد صرت هكذا شبه حطام!

وهذا عادل ابنى! لابد أنه عادل.. المحامى الطموح.

.. ومن تلك الصغيرة الفاتنة؟ زوجته؟ ومن ستكون سوى زوجة ابنى، تصحبه إلى قبر أبيه!

وهذا الصغير. الذى يتعلق بالشابة الصغيرة مرة، وبعادل مرة.. أتراه حفيدى؟ أهو عادل الصغير؟

.. واقترب "مرعى" من زوجته، لكنها لم تلتفت إليه! وأخذ يطيل النظر إلى عادل، فلم يتنبه لنظراته!

وسمع حوارا بين الأسرة الصغيرة التقطته أذناه:

ـ كان أبوك ياعادل بطلا دوخ الإنجليز.

ـ نعم ولقد حكوا لى عنه حكايات كأنها الأساطير.

ـ إن بعض الفضل لما نحن فيه الآن يرجع إليه.

ـ ولابد أنه فى مثواه يرقب بلاده وهو مرتاح الضمير.

ـ وما أسعدنى ياعادل بنسماته الطيبة، وبصفحات نضاله المجيد، إن أية امرأة فى عمرى لا تطمع فى أكثر من أن تكون أرملة لبطل مثله.

ـ أفتسمع يا "مرعى"؟.. إنك سميه، ولعلك أن تحافظ على هذا الاسم العظيم، لتصبح جديرا بحمله.

... وابتسم الصغير.

●●●

ودارت رأس "مرعى"، بين أفكار شتى مختلفة.

ـ أفتظهر لهم الآن.. تنقض عليهم كشهاب؟

ـ ويصدقونك؟

ـ فإن صدقوك، فماذا سيرونه فيك؟ أفأنت الآن امتداد لبطل قديم، كان كفاحه كالأسطورة؟! أم أن ذكرى البطولة ـ من غير شيب وغضون تتهدل ـ أحلى من نفس البطل بكل حياته؟!

ـ أفضل من أن تفسد جمال خيال الأسرة.

ـ وأعانى الحرمان؟!

ـ أن تحرم أنت، أم تحرم هذى الأجيال من أسطورة؟

ـ لكنى حى.. أرزق.. أعيش.. آكل وأشرب وأتنفس!

ـ كالنظرية!!

ـ كحقيقة!!

ـ وأى حقيقة حين تشف وتتسامى وتتجرد، تصبح نظرية.

ـ وهذه من؟.. أليست ليلاى؟ أفلا أنقذ بعضا منها؟

ـ تنقذها بالإبقاء على ذكرى بطل فيك، تعيش معه وتفخر به.

ـ وولدى؟

ـ يملأ وجدانه، رجل قهر الظلم.. أبوه.

ـ لكنى حى.

ـ حياتك.. لك أنت.

ـ ولامرأتى.. ولولدى.

ـ تقتل أحلى ماورثوا.

ـ بل أنا.. أحلى ـ قبر ـ شهيد مذكور.. أحلى! زيارات الأعياد للشهداء، أحلى مما لو أن الشهداء.. بعثوا!

ـ إنى حائر.

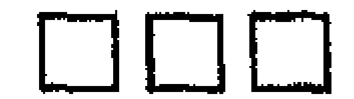
ـ اختر نفسك.. أو تاريخك. أو ليلاك وابنك. اختر بين النظرية والواقع.

ـ الواقع؟ النظرية؟.. الواقع.. بل النظرية، فهى أبقى.

●●●

وقرر "مرعى" أن يترك أسرته مع ذكراه.

لكنه لم ينس أن يقرأ الفاتحة على روحه، قبل أن يعود إلى النسيان! فى المنفى!!



رقم الإيداع : ٢٠٠٦/١٩٧٦٣

الترقيم الدولى: 4 -1529- 11 -977



عبد المنعم الصاوي في سطور

- ولد في محافظة البحيرة يوم ٢٠ فبراير ١٩١٨.
- حاصل على ليسانس الآداب قسم اللغة العربية من جامعة القاهرة.
- عمل بالصحافة وتولى العديد من مناصبها القيادية واختير دورتين متتاليتين نقيبًا للصحفيين المصريين.
- أسس أول وكالة أنباء عربية (وكالة أنباء مصر).
- أسس اتحاد الصحفيين الأفارقة وتولى رئاسته حتى رحيله.
- تولى رئاسة مركز مطبوعات اليونسكو.
- أضاف للمكتبة العربية العديد من المؤلفات الروائية والفكرية وفي مقدمتها واحدة من أطول الروايات العربية خماسية الساقية (الضحية - الرحيل - النصيب - التوبة - الحساب الذي لم يمد الله عمره لإكماله).
- تم انتخابه عضوًا بمجلس الشعب عن دائرة الأزبكية والظاهر، ثم وكيلاً للمجلس عن نفس الدورة.
- تولى العديد من المناصب القيادية بوزارة الثقافة.
- تولى وزارتي الثقافة والإعلام معًا في حكومة السيد ممدوح سالم وفي عهد الرئيس السادات يرحمهم الله جميعًا.
- تم تعيينه عضوًا بمجلس الشورى في أول دوراته.
- تولى رئاسة اتحاد سباحة المسافات الطويلة وساهم بشكل كبير في دعم الرياضة المصرية على كافة المستويات.
- ظل يناضل من أجل القضايا العربية وفي مقدمتها قضية فلسطين التي ألقى آخر خطبه دفاعًا عنها في بغداد يوم السابع من ديسمبر عام ١٩٨٤ حين توفاه الله تعالى.

٣ جنيه



الناشر: شركة ع
محمد عبد المنع
تليفون : ٧٣٥٩٠٨٧
بريد إلكتروني: net
طبعة عام ٢٠٠٧

